

شرك العقيدة وشرك العمل

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد محمد المدني

لا أظن أنه بقى على ظهر البسيطة من يعتقد أن هناك إلهاً مع الله يستحق العبادة والخضوع له كما يستحقها الله جل جلاله ، ولكن هناك نوعاً من الشرك ما يزال باقياً ، وهو أشد خطورة من الناحية العلمية وأكبر ضرراً على المجتمع من شرك الأوثان والكواكب والأحجار .

بيان ذلك أن الشرك بالله واتخاذ غيره إلهاً نوعان :

شرك في العقيدة ، وشرك في العمل .

فأما شرك العقيدة : فهو أن يعتقد الإنسان أن مع الله إلهاً آخر يستحق العبادة والطاعة ، كهؤلاء الذين كانوا يعبدون الشمس والقمر والأشجار والأحجار وغير ذلك من التماثيل ، التي كانوا يصنعونها بأيديهم ثم يخضعون لها ، ويقفون أمامها خاشعين ، ويتخيلون رضاها وغضبها ، وبركاتهما ولعناتهما ، فترعد فرائصهم منها خوفاً وفزعاً ، ولا شك أنه لا يوجد سفه وضلال يقع به الإنسان في التخيُّط والعناية كهذه العقيدة ، ولم نجد أحداً في التاريخ يعتقدونها إلا ذوو الأحلام الضعيفة والعقول السخيفة ، ولذلك يسخر الله منهم دائماً ، ويصفهم بالجهل والعمى ، وأن لهم قلوباً لا يعقلون بها ، وآذاناً لا يسمعون بها ، وأعيناً لا يبصرون بها ، وأنهم كالأنعام بل هم أضل سبيلاً .

وهذه العقيدة مودية بصاحبها في الدنيا قبل أن تودي به في الآخرة ، وحسبنا أن تصور رجلا يعيش في مجتمع مفكر — ولا سيما في عصرنا الحاضر —

وهو يؤمن في قرارة نفسه بأن هذا الحجر أو ذاك إله يستحق منه العبادة ، ويملك له النفع والضرر ، إنه لا شك يكون في سائر تصرفاته ذا عقلية ضئيلة ، وشخصية هزيلة ، ومثل هذا لا يرجى منه أى خير ، بل هو دائماً عرضة لجميع الشرور وألوان الفساد ، ولذلك يصور الله تعالى حال الشرك به تصويراً رائعاً يمثل جميع معاني الحيرة والاضطراب والخوف والضعف والضلال فيقول : « ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح في مكان سحيق » .

هذا هو شرك العقيدة ، وهو أول انحراف عن سواء السبيل ، وإليه يرجع كل اضطراب وكل شر وكل فساد في هذه الحياة .

أما كونه أول انحراف عن سواء السبيل ، فذلك أن الفطر السليمة والعقول المستقيمة توحى بالإيمان بالله إيماناً صحيحاً لا يخالجه شك ، ولا يفسده شرك ، فإن الإنسان مفكر ، وتفكيره يهديه إلى أنه لم يوجد إلا بمؤثر ، ولا يجد شيئاً أمامه يمكن أن يسند إليه هذا التأثير ، بل يجد كل ما حوله من الأشياء موجداً بعد عدم مثله تماماً ، فيذعن في قرارة نفسه لهذه القوة الغيبية التي تأتي الرسل وتنزل الأديان قسميها الإله الذي خلق الخلق ، وتفكيره يهديه أيضاً إلى قضية أخرى هي قضية الوجدانية . فيؤمن بها إيماناً عقلياً عن طريق النظر في أدلتها المعروفة ، فإذا انحرف الإنسان عن حكم فطرته ، وعن حكم عقله وتفكيره في هذا الشأن الذي يتصل بالعلاقة بينه وبين خالقه وموجده ، كان ذلك أول انحراف عن سواء السبيل .

وأما كون هذا الانحراف سبب كل اضطراب ، فإنه كما ذكرنا دليل على التباين العقل ، واعوجاج الفكر ، وباعث على سوء التصرف ، ولا يمكن أن يعيش امرؤ فاقد العقل سيئ التصرف عيشة سعيدة صالحة بين قوم عتلاء يعرفون ما يفعلون وما يتركون .

شرك العقيدة وشرك العمل

٤٠٣

أما شرك العمل فهو إثارة ما سوى الله على الله ، وإن اعتقدت أن الله واحد ، وأن الأمر بيده ، فإنه لا يكفي أن تؤمن النفس إيماناً سليماً داخلها بأن الله هو مالك النواصي والأقدام ، ثم لا يظهر لهذا الإيمان أثر في التصرف والعمل ، بل يظهر في الأعمال والتصرفات عكس ذلك ، كأن الإيمان هو ذلك الزعم القلبي الخفي الذي لا روح له ، ولا حياة به . إنما الإيمان الحق هو الذي يحول بين صاحبه وبين إثبات المنكرات واقتراف الآثام .

ولذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يقتل القتال حين يقتل وهو مؤمن ، ويقول في حديث آخر : « والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن ، قالوا من هو يا رسول الله ؟ قال الذي لا يأمن جاره بوائقه » إلى غير ذلك من الأحاديث التي تربط الإيمان الحق الذي يعبد الله به بالأخلاق الفاضلة والأعمال الصالحة ، وقد وصف القرآن الكريم المسائلين إلى الأهواء ، المتبعين للشهوات بأوصاف العبودية لغير الله ، واتخاذ غيره إلهاً إذ يقول : « واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ، ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه » ، « ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً » ، « أرايت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلاً أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً » ، « بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم ، فمن يهتدي من أضل الله » .

ووصفت السنة أيضاً هؤلاء بمثل ذلك فقصده جاء في بعض الأحاديث النبوية الصحيحة « تعس عبد الدينار والدرهم ، تعس عبد الخيصة » .

فهؤلاء مشركون ، وإشراكهم أضر على المجتمع من إشراك عابد الوثن ، والمعتقد في الحجر ، لأن عابد الوثن يضر نفسه ، ويفسد حياته ، أما هؤلاء فانهم يثبون الفساد والوهن في صفوف المجتمع ، ويشيعون فيه الضعف والمنكر وسائر أصناف الرذيلة .

أقول هذا بمناسبة ما سرى في مجتمعنا المصرى من فساد وأخلاق سيئة ، عمت الصغير والكبير ، وأصبح أمرها من التسليم والقبول في المجتمع كأمر العقائد الثابتة ، ومن حاول التنفير عنها ، أو النصح بالتخلص منها ، عُدّ في قومه كالنافخ في الرماد ، أو الضارب في الحديد البارد ، ووجد من الناس من يلومه ، ويهجن فعله ، ويرميه بالتجاوز والاعتزاز .

وقد أصبحت مهمة العلماء ورجال الدين والإصلاح بذلك من المشقة والعسر بمكان ، وإلا فن ذا الذى يستطيع أن يحول الناس عما ألفوه ، ودرجوا عليه من التعامل بغير ما شرع الله ، أو عن إباحة ما استباحوا من الحرمات باسم المدنية والحرية ، أو عن أخلاق الفجور التى منى بها الشباب ، وغض عنها الآباء والأمهات ، أو عن الفساد المتصل بالحاكمين فى الرشوة والمحسوبية ، والإهمال والتضييع ؟

إن الذى يريد أن يصلح شيئاً من ذلك ، أو يحاول خلع الناس منه ؛ يُنظر إليه نظرة تعجب ، ويتهم بأنه يعيش فى زمان غير زمانه ، ويفكر بعقل غير عقول أهله ، وهكذا انقلب المنكر معروفاً ، والمعروف منكراً . وتابع الناس أهواءهم فاتخذوها آلهة ، وآثروها بالتقديم والطاعة على الله ، فليس ينفعهم أن يقولوا إنهم مؤمنون بالله رباً واحداً ، كما أنهم مؤمنون به خالقاً وموجداً .

إنى لأخشى أن يكون مجتمعنا قد آثر ما يسمونه الحرية أو المدنية على أمر الله وأحكام الله ، وإلا فقل لى بربك أيها القارىء : ما الذى يدعونا إلى التمسك بهذه الألوان الباهتة من المدنية الزائفة ، وقد أفضى بنا الأمر إلى كارثة الفضيلة والخلق ، حين همّ بعض الفتيان فى حفلة أقامتها الدولة ببعض الفتيات المُجتمعات للرقص من أوربا ؟

أنغرينا المدنية والرق الكاذبان بأخلاقنا وآدابنا إلى هذا الحد ، ثم نتمسك بأخطائنا فى شأنهما تمسك المرء بعقيدته ، ونؤثرهما على الدين ؟

هذا هو الشرك بالله فى أخطر صورته ، فإياه فحاربوا أيها المؤمنون .

القرآن كما تتحدث عنه السنة :

العلم بأسباب نزول القرآن

لمؤلفة صاهب الفضيلة الشيخ فكري بسّ

أخرج الواحدى بسنده عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « اتقوا الحديث إلا ما علمتم ، فإنه من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار ، ومن كذب على القرآن من غير علم ، فليتبوأ مقعده من النار » .

من القرآن ما نزل ابتداء للأغراض العامة التي جاء من أجلها ، كإلهاداية إلى الدين الحق ، والعميدة الصحيحة ، والإرشاد إلى المعاملات المشروعة ، والأخلاق الفاضلة ، وما إلى ذلك من القواعد الأساسية الكبرى التي يقوم عليها النظام السكلى العام .

ومنه ما نزل مرتبطاً بسبب من الأسباب الخاصة ، كنزوله عقب حادثة معينة أو سؤال معلوم ، وذلك كآيات التي نزلت عقب الخلاف الذي وقع بين جماعة من الأوس والخزرج بدسياسة من اليهود ، حتى نادوا : السلاح السلاح ، فنزل قوله سبحانه : « يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين » ، إلى آيات أخرى بعدها ، وكآيات التي نزلت عقب السؤال عن ذى القرنين ، وعن الروح ، وعن الساعة .

وهذا النوع الثانى هو ما يعرف عند العلماء بسبب النزول ، وهو عبارة عن نزول الآية أو الآيات معينة لحكم الحادثة التي وقعت ، أو لجواب السؤال الذى

رفع إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا طريق لمعرفة ذلك النوع إلا النقل الصحيح ، كما جاء في الحديث الذى معنا ، فالقول فى أسباب النزول لا يحل إلا من طريق الرواية والسمع عن شاهدهوا التنزيل ، ووقفوا على الأسباب ، وبحوثها عنها ، ولا يصح التعويل على غير ذلك من الأحاديث المرسلة إلا إذا صحت واعتضدت بمرسى آخر ، وإلا إذا كان الراوى من المعروفين بالتبريز فى التفسير ، ومن المشهود لهم بالتفوق فيه ، ومن الآخذين عن الصحابة رضوان الله عليهم .

وقد عنى العلماء بهذا المبحث عناية فائقة ، وأفردوه بالتأليف والتصنيف ، لأنه خير طريق لفهم معانى القرآن ، ومعرفة وجه الحكمة الباعثة على تشريع الحكم ، وتخصيص عامه ، وتقييد مطلقه ، وإزالة الإشكالات عنه ، وغير ذلك من الفوائد الكثيرة التى لها أهمية فى تفسير القرآن ، والتى تعين على فهم المقصود من آياته .

وقد تناول الأصوليون كثيرا من مباحث هذا النوع ومسائله وجزئياته بالدرس والتحليل ، والشرح والتفصيل ، وأشبعوه قولاً وبحناً ، وأطالوا فى ذلك إطالة ليس وراءها زيادة لمستزيد .

ومن أدق ما استدل به الأصوليون على ضرورة معرفة أسباب نزول القرآن ، ولزومها لمن أراد فهم القرآن أمراً : *مختصر علوم القرآن*

الأول : إن الذى يعرف به إعجاز القرآن ، إنما مداره على معرفة مقتضيات الأحوال : حال الخطاب من جهة نفس المخاطب أو المخاطب ، أو الجميع ، إذ الكلام الواحد يختلف فهمه بحسب حالين ، وبحسب مخاطبين ، وبحسب غير ذلك ، كالاستفهام ، فهو لفظ واحد ، ويدخله معان آخر من تقرير وتوبيخ وغيرها ، وكالامر ، يدخله معنى الإباحة والتهديد والتعجيز وأشباهاها ، ولا دليل على معناها المراد إلا الأمور الخارجة ، وعمادها مقتضيات الأحوال ، وليس كل حال ينقل ، ولا كل قرينة تقترن بنفس الكلام المنقول ، وإذا فات نقل بعض القرائن الدالة ، فات فهم الكلام جملة ، أو فهم شئ منه ، ومعرفة أسباب النزول رافعة لكل مشكل من هذا النمط .

الأمر الثانى : إن الجهل بأسباب النزول موقع فى الشبه والإشكالات ، ومورد للنصوص الظاهرة مورد الإجمال ، حتى يقع الاختلاف ، وذلك مظنة وجود النزاع ،

ويوضح ذلك ما روى أن عمر سأل ابن عباس : كيف تختلف هذه الأمة ، ونبيها واحد ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، إنا أنزل علينا القرآن ، فقرأناه ، وعلّمنا فيم نزل ، وإنه سيكون بعسدا أقوام يقرأون القرآن ، ولا يدرون فيم نزل ، فيكون لهم فيه رأى ، فإذا كان لهم رأى اختلفوا ، فإذا اختلفوا اقتتلوا وروى ابن وهب عن بكير أنه سأل نافعا : كيف كان رأى ابن عمر في الحرورية ؟ فقال : يراهم شرار خلق الله ، لأنهم انطلقوا إلى آيات أنزلت في الكفار ، فجعلوها على المؤمنين .

وقد وقع من الحوادث بين الصحابة أنفسهم ما يدل على أن عدم معرفة بعضهم لأسباب النزول ، كان له أثر كبير عند بعضهم في فهم الآيات على غير حقيقتها ، وتفسير القرآن على غير وجهه .

فمن ذلك ما أخرجه الشيخان من أن مروان بن الحكم أشكل عليه قوله تعالى : **و لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا ، فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ، ولهم عذاب أليم** ، فقال لئن كان كل امرئ فرح بما أتى ، وأحب أن يحمد بما لم يفعل معذبا ، لنعذبن أجمعون ، وظل على فهمه هذا حتى بَيّن له ابن عباس سبب نزول هذه الآية ، وأنها نزلت في جماعة من أهل الكتاب سألو النبي صلى الله عليه وسلم عن شيء فسكتموه إياه ، وأخبروه بغيره ، وأروه أنهم أخبروه بما سألهم عنه ، واستحمدوا إليه بذلك ، فلما بَيّن ذلك ابن عباس لمروان ، زال عنه الإشكال ، وفهم المراد من الآية فهما صحيحاً .

وروى أن عمر بن الخطاب استعمل قدامة بن مظعون على البحرين ، فقدم الجارود على عمر ، وأخبره أن الجارود شرب فسكر ، فطلب عمر البيّنة فأقيمت ، فقال عمر لقدامة : إني جالدك ، فقال : والله ، لو شربت كما يقولون ما كان لك أن تجلدني ، فقال عمر : ولم ؟ فقال قدامة : لأن الله يقول : **و ليس على الذين آمنوا و عملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا و عملوا الصالحات ، ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا ، فأنا الذين آمنوا و عملوا الصالحات ، ثم اتقوا وآمنوا ، ثم اتقوا وأحسنوا ، شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بدرأ ، وأحدأ ، والخذق ، والمشاهد** : فقال عمر : ألا تردون عليه قوله ؟ فقال ابن عباس :

إن هذه الآيات أنزلن عذراً للباشرين ، وحجة على الباقرن ، فعذر الماضين أنهم لقوا الله قبل أن تحرم عليهم الخمر ، وحجة على الباقرن ، لأن الله يقول : « يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه ، الآيتين ، فإن كان من الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا ، فإن الله قد نهى أن تشرب الخمر . قال عمر : صدقت ، ونزل قدامة على رأى التوم عند ما تبين له سبب نزول الآية ، وعرف حقيقة المراد منها .

وجاء رجل إلى ابن مسعود ، وقال له : تركت رجلاً فى المسجد ، يفسر القرآن برأيه ، إذ يفسر قوله تعالى : « فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين » ، بأن الناس يوم القيامة يأثمهم دخان ، فيأخذ بأنفاسهم ، حتى يأخذهم كهيئة الزكام ، فقال ابن مسعود : من علم علماً ، فليقل به ، ومن لا يعلم ، فليقل : الله أعلم ، ثم أخذ يشرح سبب نزول هذه الآية . وبيّن أصل معناها ، فقال : إنما كان ذلك ، لأن قريشاً ، استعصوا على النبي صلى الله عليه وسلم ، فدعا عليهم بسنين كسنى يوسف ، فأصابهم قحط وجهد ، حتى أكلوا العظام ، فجعل الرجل ينظر إلى السماء ، فيرى بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد . وفي القرآن كثير من هذا النوع ، فليتبعه من أراد ، وفي هذا القدر كفاية .

تحاسد الأقارب

قالت العرب : أزهد الناس فى عالم أهله .
ووقف أمية بن أبى الأشكر على ابن عم له فقال :
نشدتك بالبيت الذى طاف حوله رجال بنوه من لوى بن غالب
فإنك قد جربتني فوجدتني أعينك فى الجلى وأكفيك جانبي
وإن دب من قوم إليك عداوة عقاربهم دببت إليهم عقاربى
قال نعم كذلك أنت ، فما بال مثيرك لا يزال إلى دسيسا ؟ قال لا أعود . قال
قد رضيت وعفا الله عما سلف .

وقال يحيى بن سعيد : من أراد أن يبين عمله ويظهر علمه فليجلس فى غير مجلس رهطه .

كيف ندرس الأدب

لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد الجواد رمضان

بهذا العنوان ، نشرت مجلة الأزهر ، عدد شهر ربيع الأول سنة ١٣٦٠ ، مقالا لأحد طلاب كلية اللغة العربية ؛ قدمت له بقولها : « هذا رأى فى دراسة الأدب للكاتب » . وأعجبته بقولها : « نشرنا هذا المقال لحضرة كاتبه الفاضل ، لمسا رأينا فيه من وجوه تقدر قدرها » . والمدار فى هذا الأمر على ما يتفق عليه آراء المشتغلين به ، وعلينا نحن أن نعرض الآراء عرضاً غير متحيزين لواحد منها ، ولما كنت أتشرف بأبني من أقدم مدرسي الأدب فى الكلية التى منها حضرة الكاتب الفاضل ، فإنه يحتم على الكلام ، واجب العمل الذى آكل به خبزي ، وواجب الطالب ، الذى يعد شره فى مثالبنا ، وخيره فى مناقبنا .

• • •

أما بعد . فأيها الطالب الكريم ، الذى لم أتشرف بمعرفته بعد ؛ والذى أرجو له مستقبلا يضاهي طماحه ، ويواثم ثمنه بنفسه واعتداده برأيه ؛ وأخيراً ، يشع غروره ، إشباعاً يرده إلى تواضع العالم ، واتزان الناقد ، وهذوء الأديب ، إن شاء الله تعالى — إن أول شرط فى « هجائية » النقد الأدبي الذى حُبِّرت فيه متمالك ، سلامة الأسلوب وقوته ؛ ولا أكتمك أنه قد جرح شعوري « المعهدي » ما يشيع فى أسلوبك من تخاذل وتفكك واضطراب ، كان ينبغي أن تعنى بإصلاحه قبل أن تسمو إلى النقد الأدبي وتغرق نفسك فى آزيه المتلاطم ؛ والناس يقولون : « الأساس ، فالبناء » .

فالناقد الأديب - يا بني - لا يقول : « مساعا » كما قلت ، وإنما يتهدى بالأسلوب القرآنى : وما يستوى البحران ، هذا عذب فرات سائغ شرابه ، وهذا ملح أجاج .

والناقد الأديب لا يقول كما قلت : وأصبحت التجزئة عنوان المباحث ؛ وإنما يقولها تاجر « التجزئة » .

والناقد الأديب لا يقول كما قلت : وأصبحت تطلق إطلاقاً فيها الخ ، وإنما يقول : إطلاقاً إصطلاحياً أو عرفياً وكذلك لا يصف الجنائية بالفنية كما وصفتها ، إلا أن يكون ذلك تجديداً في « الجنائيات » ! .

والناقد الأديب ، لا يقول كما قلت : والسمو بالمواطن النبيلة ، فالمواطن النبيلة ليست في حاجة إلى ما يسمو بها .

والناقد الأديب ، لا يحيل « يفسد » كما أحلت ، إذ تقول : « ولا مانع أن تتعدد ألوان هذا الخيط ، فيكون بعضه أحمر والبعض الآخر أصفر ، لأن جماله في تماسكه وتجانسه وفي جوهره ، أما أعراضه فليست حائلاً يمنع من تكلمة الصورة واستملاها » : فهذا كلام يصبق بعضه في وجه بعض ؛ واغفر لي هذا التعبير فإنه كلام ...

إلى غير ذلك مما يخرجنا استقصاؤه إلى الإملال ؛ ومما هو من عمل معلمي الإنشاء ، لا من عمل مدرس الأدب .

ثم أما بعد ، فإن الأدب الذي يدرس في جميع المؤسسات الثقافية ، على اختلاف نظمها وطبقاتها ، نوعان :

١ — أدب وصفي ويسمى : النقد الأدبي ، كما يسمى : علم الأدب : وموضوعه ، معرفة ما في النصوص الأدبية نثراً ونظماً ، من نواحي الجمال والقبح الفنيين . وفائدته . فهم الأسرار البلاغية للقرآن الكريم للوصول إلى أصل من أصول الإعجاز ، لا ما قلت من أن : « القصد من هذه الدراسة ، تهذيب النفوس وترقي المشاعر وتنمية الذوق الأدبي ، والسمو بالمواطن النبيلة ، بعد فهم هذه النصوص ، ليسهل الصب على قلبها والتوليد من معانيها والتشبيث بجمال ألفاظها وتراكيبها ، فكل أولئك فوائد دنيا ، بالنسبة إلى الغاية العليا من النقد الأدبي ، يابني .

والأدب الوصفي هذا ، هو الذى استأثر بعناية العلماء والباحثين والنقاد قديماً وحديثاً ، واستبند بأفاق الدراسة الأدبية فى جميع العصور والمناهج ، مباشراً ، كما فى الوساطة والموازنة والعمدة ، وغيرها ، وغير مباشر كما فى كتب البلاغة . وما زال يدرس فى المعاهد العالية والعليا تحت عنوان النقد والنصوص ، وفى المدارس الثانوية تحت اسم : المحفوظات مرة ، والنصوص الأدبية مرة أخرى . وذلك أمر متعالم مشهور : وليس كما قلت : « ان الأدب لم يدرس ولم يعرف عنه شيء فى دور التعليم » . ولا داعى أبداً أبداً ، لهذه العواطف التى يطفح بها قولك : « ولكن نفس الغيور على الأدب تتقطع حشرات عندما ينظر إلى طرق دراسة الأدب فى معاهدنا على اختلاف أنواعها . وان كل ذى حذب على تلك الآثار ليتلوى ألسنا على مصير هذا الفن الرفيع ، حينما يتخيل الظلام المخيم » كذا كذا ، على هذا الركن من التراث العربى . « وسيلست نفسك للأدب — يا بنى — وصحتك بالدنيا !



٢ - تاريخ أدب : وموضوعه معرفة الأطوار التى تقلب فيها الأدب ، وخصائص كل طور ، منذ ظهور الأدب الفنى « الأدب الإنشائى الذى هو قسم الأدب الوصفى ، إلى اليوم . والتاريخ مقدنة له ووسيلة إليه لا شطر من موضوعه . ولقد ظلت الدراسات الأدبية منذ ظهورها ، مقصورة على النوع الأول « الأدب الوصفى » ، حتى سنة ١٨٩٢ ، حينما عاد المغفوء له المرحوم حسن توفيق العبدل ، من بعثة إلى ألمانيا ، يحمل - فيما يحمل - مبادئ علم « تاريخ الأدب » ، وأخذ يدرسه فى مدرسة « المعلمين العليا » وجعل ذلك العلم ، يدرج فى مدارج الاكتمال والنضج ، وتشيع دراسته فى المعاهد الشرقية ، حتى وصل إلى التآصل والمقام الكريم الذى يتبوؤه اليوم من دراسة علم الأدب .

وقد تجلى تجلياً يقطع كل جدال ، أثر تاريخ الأدب ، فى فهم النصوص الأدبية ، مشورها ومنظومها ، فهما يجلى جمالها الفنى مسفراً وضاحاً ؛ فى أكمل مظهر ، وأجمل رواء ، لا يكاد يخفى ، إلا على أكمة لا يعرف القمر !
يقول الدكتور طه حسين فى « الأدب الجاهلى » :

« فهل تزعم أنك تستطيع أن تفهم همزية أبي نواس : دع عنك لومي فإن اللوم لغراء ... دون أن تعرف النّظام خاصة ، والمعتزلة عامة ، وما كان لهم من مذهب وقوة أيام أبي نواس ؟ وكيف تستطيع أن تفهم قوله :

فقل لمن يدعى في العلم فلسفة حفظت شيئاً ، وغابت عنك أشياء

إذا لم تعرف أنه يريد النّظام ؟ فإذا عرفت أنه يريد النّظام ، فأنت في حاجة إلى أن تعرف : من النّظام ، ولم تعرض به أبو نواس ؟ فسترى أن النّظام كان من المعتزلة الذين يقولون إن صاحب الكبيرة مخلد في النار ؛ وإذا كان شرب الخمر كبيرة فصاحبها مخلد في النار ؛ وإذا كنت في فلسفة النّظام ، وأنت متعمق في فلسفة المعتزلة ، وأنت مضطر إلى ذلك اضطراراً ، مضطر إلى أن تدرس التوحيد واختلاف أهل السنة والمعتزلة فيه ، لتفهم خمرة من خمرات أبي نواس » . اهـ .

وهل كان التّناد والعلماء ، منذ قال ابن هانيء الأندلسي في أواسط القرن الرابع يمدح المعز الفاطمي :

ما شئت ، لا ما شئت الأقدار فاحكم ، فأنت الواحد القهار

يرون في ذلك غير أنه غلو غير مقبول ؟

ولسكنك إذا عرفت ، أن المعز من الشيعة الإسماعيليين ، وأن من عقائد هذه الفرقة : أن الإمام قائم مقام الأمر والكلمة في هذا العالم ، لجميع صفات الباري واقعة عليه ؛ وأن الباري تعالى عندهم ، منزّه عن جميع النعوت والصفات ، كالتمادر والصانع ، ولا يطلقون عليه شيئاً منها ؛ فإن إطلاقها عليه يوجب الكثرة في ذاته تعالى ؛ فالصانع مثلاً ، يتمتضي صنعة ومصنوعاً ، وهكذا حال جميع الصفات ، تجد الواحد منها ثلاثاً .

أقول إذا عرفت ذلك ، عرفت أن إطلاق الواحد القهار ، على المعز لدين الله ، موافق لأصول عقائدهم . وليس في ذلك الإطلاق شيء من الإسراف ولا من الغلو ؛ وأن رأي النقاد غلظة مزمنة ، لم يصححها إلا تاريخ الأدب .

على أن من المقررات المتعالمّة المشهورة . أن الأدب ظل الحياة الاجتماعية ؛ فكيف يفهم هذا الظل على وجهه ، مقطوعاً عن دراسة هذه الحياة ؟ !

وكان تاريخ الأدب لأول عهده بالظهور ، يدرس رأسياً : الخطابة في جميع

العصور ؛ ثم الكتابة في جميع العصور ؛ ثم الشعر بأغراضه المختلفة في جميع العصور ؛ وعلى هذا الوجه ، ألف المغفور له محمد أفندي دياب ، كتابه « تاريخ الأدب » الذي كان يدرس في المعاهد العليا في عهد « نظارة المعارف » ويعتبر الكتاب الرسمى ؛ ثم جاء المتأخرون من أدباء العصر الحاضر ؛ فدرسوه وألفوا فيه أفقياً ؛ ولكل وجهة ؛ والخطب في ذلك — في مذهبي أنا — أيسر من أن يخرق خرقاً في الأدب ، أو يشرح شرحاً في صرحه ، أو يهدم طوبة من بنائه . وحاجة كلنا الدراستين إلى معرفة أطوار الأدب ، وخصائص كل طور ، لا تتغير ، وليس فيها — كما قلت : « خلط لا يرضاه منصف لأدب لغة حية راقية » ، لأنه منهج طبقته جميع الأمم الحية ، ذوات اللغات الحية ، وعملت به ، وعنها تعلمناه !

وأما بعد للمرة الثالثة ، فأنى أشكر لمجلة الأزهر ، تلطفها في معاملتك ، وسخاءها في مجاملتك ، واحترامها لرأيتك ، « لما رأت فيه من وجوه تقدر قدرها كما قالت » . وعرضها له لتستجير حوله الأقلام ، ثم وقوفها بأزاء ذلك على الحياد . ثم أشكر لك أن أتحت لى فرصة مكنتنى من أن أضع الأمور في نصابها ، وأن أقدم لك ولأمثالك من أبنائنا الأعزّة ، وضحا من النور ، أرجو أن يصرفكم عن ضلال القصد إلى سواء السبيل .

بيد أنى أعتب عليك — يا ولدى الأستاذ أحمد محمد صقر — عتياً رقيقاً أبوياً ، لأنك تخطيت أساتذتك مدرسى الأدب في كليتك الكريمة ؛ وإنما شفاؤك من البلبلة الفكرية التى جناها عليك ضعف دراساتك الأدبية ، على طريقتهم ؛ لاعلى طريق مجلة الأزهر ، التى يشرف كل أزهرى ألا ينشر فيها إلا كل نافع مشرف ، وإن كان يخفف من خطئك هذا شدة الرغبة ، فى الشهرة وأن لك نظراء بين كتابها ؛ فكثير من مقالاتها يحسن أن يتوجه به إلى مجلات « الوعظ والإشاد » لا إلى مجلة علمية بحثية ينبغى أن تقتصد على البحوث المركزة ، فى المشكلات العويصة وليس ذلك عيب المجلة ، ولكنه فضيحة للناشرين .

وفتح الله عليك — يا ولدى — وسامحك ، إكراماً لطموحك وغرورك ؛ فلتدأ أصبحت لا أحسد إلا المغرورين !
والسلا عليكم ورحمة الله وبركاته ؟ « أبوك وصديقك »

عمد المدينة

لحضره صاحب السيادة « السيد »

حيّ أهلاً بالهدى أو حييني
من لعمد يتلظى فطنة
تقفوناً ثم قالوا ضلة
غن بالجهل إن الجهل ازدهى
سنة العلم طامح وهوى
ذمت الآداب إن لم تفتن
ود للريسة إن لم يفتن
أتم الدنيا وإن لم تأذن !!!
فابتنى للعلم ما لم يبتن !!!
فتكه تجنني وكف تجنني

عصر يا عصر الجحلا مرة جاً
حلني بالعلم رفوف الحلى
هجنة العلم دواهي ملحد
رائد العلم كخيال المهى
نحن للفتنة نهب شديد ما
الوعى والحسن فتان الهوى
الحياة الطعن حتى حسنها
بالعلوم الغيد إن لم تحسن
يقنى علياءه أو تخلني
ثمر الكيد ونجوى مؤمن
يشكى تقصد المني في الثمن
قسمتنا في الوغى والأعين
أوقداً مذ نشأ من معبدن
طاعن من كل قد يذني

قل : حرب وجلاد والهدى
إن في رأس التحدى فتكة
صاح في الأفلاك ملق ذرة
قاتلي في حربه أو حسنه
ليس يحى والهوى في موطن
سوف توهم الكون إن لم تطعن
يا علالات التقى لا تأمنى
لست بالرحمن إن لم تحييني

روتعت حرية السرب وما
سل بحكم طيف تشهد سيّداً
قاتل الشورى دهنه وئساً
بورك الدستور في أنصاره
قيمة الأصلاح إن لم يأمن
يقنى التمانون فيما يقنى
يقيق أو ساجداً للوثن
جنة الحسنى وجند المحسن

لغويات

لحضرة صاحب الفضيلة الشيخ محمد علي النجار

كتبت إليك لا لألومك . حضرت إليك لا لألومك بل لأشكر . ما قرأت لا فقها ولا نحواً . هذه أساليب تجرى على ألسنة الناس ، وفي كتاباتهم ، وقد عنى لي أن أبحث أمرها من وجهة النحو والعربية .

١ — فالأسلوب الأول — كتبت إليك لا لألومك — يجيزه النحاة ويسوغونه ، ولا يضيقون بتخريجه ، ويجعلون هذا من حذف المعطوف عليه ، والتقدير في هذا المثال : كتبت إليك لأشكر لا لألومك ، فلا عاطفة كما ترى والمعطوف عليه المحذوف هو المقابل المذكور المضاد له ، ومن ثم جاءت لا غير مكررة .

وأقدم من عرض لهذا الأسلوب وتخريجه من النحاة — فيما علمت — الإمام أبو حيان المتوفى سنة ٧٤٥ ، فقد قال في الارتشاف في مبحث العطف بلا : « وقد يجوز حذف المعطوف عليه بلا : نحو أعطيتك لا لتظلم ، أى لتعدل لا لتظلم ، وتبعه في هذا تليذه الحسن بن قاسم المرادى المعروف بابن أم قاسم شرحه للألفية فقال في مبحث العطف : « قد يحذف المعطوف عليه بلا : نحو أعطيتك لا لتظلم أى لتعدل ، وقد جرى على سنن المرادى — وكانت وفاته سنة ٧٤٩ — أبو الحسن الأشموني في شرحه للألفية ، وقد أثر عن الأشموني أنه يتقيل المرادى في شرحه ، حتى إن تنبيهاته ونظامها أخذها عن المرادى ، وتتناقل الرواية عنه أنه قال : لولا المرادى ما بلغت مرادى . أقول إن الأشموني ذكر هذا الحكم الذى أورده المرادى ومن عرض له بعد أبي حيان السيوطى المتوفى سنة ٩١١ فقال في السهم^(١) : « وقد يحذف متبوعها : نحو أعطيتك لا لتظلم أى لتعدل لا لتظلم ، .

[١] الورقة ٣٠٨ ب من مخطوطة دار الكتب رقم ١١٠٦ نحو . [٢] ص ١٢٧ ج ٢ .

ولا أعلم سند أبي حيان في هذا الحكم . فهل له فية إمام متبوع نقله عنه ؟ وقد كان أبو حيان واسع الاطلاع جداً ، اجتمع لديه من آراء النحاة ما لم يجتمع لغيره أم وقف في هذا على شاهد اتخذه حجة وسلطاناً ! وأيا ما كان الأمر فأبو حيان ثقة في النحو وإمام ، وهو فيه الفجل لا يقرع أنفه ، وبحسبنا هذا في تصحيح الأسلوب الأول .

٢ — والأسلوب الثاني — كتبت إليك لا لالومك بل لأشكرك — أشهر وأفشى في الاستعمال من الأول ، وتراه كثيراً في عبارات المؤلفين ، حتى من يتحرى منهم الصحة ، ومن يأخذ من الفصاحة بسبب وثيق . فهذا الإمام عبد القاهر الجرجاني المتوفى سنة ٤٧١ — وهو من هو بلاغة وفصاحة ديباجة — يقول في أسرار^(١) البلاغة : « وإذ قد عرفت هذا فالحل في الآية من هذا التبيل أيضاً ؛ لأنه تضمن الشبه من اليهود لا لأمر يرجع إلى حقيقة الحل بل لأمرين آخرين : أحدهما تعديده إلى الأسفار . . . ، فقولاه لا لأمر . . . يتعلق بقوله ، « يتضمن الشبه من اليهود ، وترى أنه من الأسلوب الذي نتحدث عنه .

والقارئ يرى أن هذا الأسلوب يزيد على الأسلوب الأول الذي قررت صحته الإضراب (بل لأشكرك) وقد يؤتى بدله بالاستدراك فيقال : ولكن لأشكرك فهل هذه الزيادة تضر به ، وتقلبه مردوداً . منكراً ؟

وإذا تأمل المرء بعض تأمل رأى أن ما في حين الإضراب أو الاستدراك كان هو المعطوف عليه في الأسلوب الأول ، وهنا يدرك لأول وهلة ما في هذا الأسلوب من حرج وعسر في التخريج .

فكيف تقدر المعطوف عليه في هذا الأسلوب وقد ذكرت في عجزه ! كان تقدير الكلام والنية به : جئتك لأشكرك لا لالومك ، فهل تقول : جئتك لأشكرك لا لالومك بل لأشكرك ولكن لأشكرك ، وهل هذا إلا هراء من القول ولغو أشبه بهزيان المحموم .

إن الذي يبدو بعد هذا نبذ الأسلوب وأطراحه وهجره هجراً طويلاً .

على أن الباحث قد يبدو له في تخريجه ما يجعل له نصيباً من الصحة وقسطاً من القبول .

فقد تستطيع أن تقدر المعطوف عليه أمراً عاماً غير مافي حيز الإضراب أو الاستدراك . فتقول مثلاً في قولك : كتبت إليك لا لألومك بل لأشكرك : كتبت إليك لأمر تحمده لا لألومك بل لأشكرك . وقوله : بل لأشكرك إبانة عن هذا الأمر المحمود وإيضاح له .

وتستطيع أن تقدر المتبوع هو « لأشكرك » الذي هو في حيز الإضراب ، على نسق ما قدر في الأسلوب الأول . وهذا المتبوع إنما ينوي في النفس ولا ينطق به ، حتى لا يكون في النظم ضعف وتهافت . ورب شيء يقدر ولا يخرج في اللفظ ؛ ألا ترى إلى قوله تعالى : « كتاب الله عليكم » فكتاب معمول لمحذوف ، وتقدير الكلام : كتب الله . فهذا تقدير العامل ، ولو قلت : كتب الله كتاب الله لوقعت في سخي من الكلام ومهلل من النسيج ، وإنما هذا تقدير توجه الصناعة النحوية ولا يتكلم به .

وبما أسلفت من تخريج هذا الأسلوب — على ما فيه من الإبعاد والتكلف — ترى أن لا بأس بهذا الأسلوب ، مع الوصية بأن يتجنب ويهجر .

وتراني التزمت في هذين التخريجين أن تكون لا عاطفة . وذلك أنها لو لم تكن عاطفة لوجب تكرارها . ولا يجوز مخالفة ذلك إلا في ضرورة الشعر كما في قول الشاعر :

قهرت العدا لا مستعينا بعصبة ولكن بأنواع الخدائع والمكر
وثم مانع آخر ، وهو أن لاغير العاطفة وغير العاملة لا تدخل إلا على نعت أو خبر أو حال أو معرفة . وسيأتى مزيد بحث لهذا في الحديث عن الأسلوب الثالث .
٣ — والأسلوب الثالث — ما قرأت فقها ولا نحوا . ومثله : فلان لا ينفع لا في حقير ولا في جليل — أسلوب غير مرضى ولا مستساغ . وإنما الفصح أن يقال : ما قرأت فقها ولا نحوا ، وفلان لا ينفع في حقير ولا في جليل . وذلك أن لا هذه إنما هي لتأكيد النفي ، ولا حاجة للتأكيد لقرب العهد بما النافية . وإنما تدخل لا هذه المؤكدة للنفي على المعطوف إذ كان في حكم جملة ثانية ، على أن لا تزداد

في العطف لمعنى زائد على التوكيد، وهو النص على أن النفي تناول كلا من المتعاطفين ولم ينصب على اجتماعهما، فإذا قلت: ما أكلت لحما وسمكا جاز أن يكون قصدك إلى أنك لم تجمع بين هذين وإن أكلت أحدهما، فأما إذا قلت: ما أكلت لحما ولا سمكا فقد نفيت أن تكون عرضت بالأكل لواحد منهما.

ولا هذه لا يصلح أن تكون عاطفة؛ فإن لا العاطفة لا تدخل في النفي. وتدخل في مواطن أخرى ذكرها ابن مالك في قوله:

... .. ولا نداء أو أمرا أو إثباتا تلا

ولإذا ثبت لديك ووقر في صدرك ما ذكرته، فإن لا هذه هي التي يجب تكرارها.

وينص النحويون على أنها تدخل في غير التعريف على ثلاثة: الخبر والنعت والحال. ويقول ابن مالك في الكافية:

ولازم في سعة تكدير لا إذا بذى التعريف محضا وصلا
كذا إذا يتلوه نعت أو خبر أو حال إلا في اضطرار من شعر.

وقال في شرحها^(١): «ومثال لزوم التكرار لكون المتصل بلا خبراً ونعتاً وحالا: لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون، ويوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية، وجاء زيد لا خائفاً ولا آسفاً».

وترى أنه حصر ما تدخل عليه، لا غير العاطفة وغير العاملة في الخبر والنعت والحال والمعرفة. وقد يرد على هذا الحصر ما أنشده أبو زيد في نوادره^(٢) من قول الراجز: فقام لأوان ولا رث القموى.

وقد يدفع هذا بأن ما في الرجز على تقدير حذف الموصوف، أى فقام رجل لأوان ولا رث القموى، فهو مما دخل فيه لا على النعت.

وروى الجهشيارى في كتاب^(٣) الوزراء لابن المقفع:

إذا ما مات مثلى مات شخص يموت بموته خلق كثير
وأنت تموت وحدك ليس يدري بموتك لا الصغير ولا الكبير

فكيف نقدر الموصوف هنا ؟ هل يقال : ليس يدري الإنسان ؟ إن المتبادر في مثل هذا أن يقال : لا يدري أحد . وحينئذ لا يكون « الصغير والكبير » . وصفين له لاختلافهما بالتعريف والتكثير . والأقرب أن يحمل هذا على الخطأ . وابن المقفع قد يقع في الخطأ ، وليس هو من يحنج به .

وأعود إلى ما كنت بصده . وهو : ما قرأت لا فقها ولا نحواً . فقد رأيت أن لا التي يجب تكريرها ، دخلت على ما لم يذكر النحاة دخولها عليه ، فليس منها المفعول والظرف . فالوجه الحكم فيه بالخطأ وإنكاره .

وقد وقع في هذا الأسلوب ابن الرومي إذ يقول ^(١) في معلم صبيان مغن :

أبو سليمان لا ترضى طريقته لا في غناء ولا تعليم صبيان
له إذا جاوب الطنبور محتفلاً ضرب بمصر وصوت في خراسان

فتراه أدخل لا غير العاطفة وغير العاملة على غير الأنواع الأربعة . وعندى أن ابن الرومي أخطأ في هذا ، وهو متأخر عن عصر الاحتجاج الذي ينتهي بشار كما قيل . وإن في هذا أخالف الأستاذ العقاد في الحكم على ابن الرومي فهو يجعله بمفازة من الخطأ ، ويقول ^(٢) : « أما لفظه من حيث هو صحيح وخطأ فلفظ عالم بالنحو مطلع على شواهد العربية ولا سيما في القرآن » . ويقول : « فلم يكن ابن الرومي ممن يسهل وقوعهم في الخطأ النحوي : وإلا لظهر منه ذلك في مواضع شتى ، مع إطلائه وإكثاره وجرأته على تذليل النحو لمن أراد » . ولا يعجبني في هذا المقام استدلال الأستاذ العقاد على سلامة ابن الرومي من اللحن بأنه جرى على منع « أشياء » ، الصرف كما وردت في الكتاب الكريم ، ولم يتبع في ذلك التماسيين من النحاة الذين يرون أن وزنها أفعال فهي مصروفة عندهم . وذلك أن أشياء لا يقول نحوي - فيما علمت - بصرفها ، وليسوا كلهم على أن وزنها أفعال : فجمهور البصريين أوزنها لفعاء . فجرى فيها القلب ، ومن يقول : إن وزنها أفعال يقول إنها منعت الصرف على توهم أن أشياء كحمراء في الوزن ، والوهم يعمل كثيراً في اللسان كما قيل : تمندل وتمدرع ، وكما جمع مسيل على أمسلة على توهم إصالة الميم .

[١] انظر كتاب « ابن الرومي » ، الأستاذ العقاد ص ١٣٠ .

[٢] انظر كتابه عن ابن الرومي ص ٣٢٢ وما بعدها .

أسباب العزة

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد عبد النواب

مفتش الوعظ بالأزهر

قال الله تعالى في محكم كتابه وهو أصدق القائلين : « من كان يريد العزة فلله العزة جميعا ، إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد ومكر أولئك هو يبور » .

في تعاليم هذا الكتاب العزيز ، وفي قوة بيانه ، وبإلغ حجته ، وسلامة منطقته ، تبين آيات من الهدى ، وتفتح جنات من الخير ، وتُدَوَّى هواتفُ الحق ، معلنةً إشراقته ، مُجَلِّسَةً آفاقه ، ناطقةً بالحكمة وفصل الخطاب .

ينادى هذا القرآن العزيز طلاب العزة ، فيبصرهم بأسبابها ، ويسايرهم في نواحيها ، ويضع على منافذ عقولهم وقلوبهم متاور الهدى والرشاد .

من كان يريد العزة في الدنيا ، ومن كان يريد العزة في الآخرة ، ومن كان يريد العزة في الدنيا والآخرة جميعا ، فليطلبها عند الله ، فهو — وحده — صاحبها ، ومالكها ، وواهبها :

فأما عزة الدنيا ، من نباهة ذكر ، ووجاهة شأن ، ورجاحة رأى ، واجتماع الكلمة على حبه وحده ، فمُشْأكل ذلك ومردده ، جمال الصلة بالله ، وجلال الطاعة في تقواه .

فالعبادات كلها ، سرها وجهرها ، بدنية ، أو مالية ، أو بدنية ومالية ، أسباب تتوكد وتتوثق ، لتمسك للعابد ، وتمسك للطمع ، في عزة يتسع أقدامها ، وتسمو غايتها .

فقيم الصلاة عزيز : لأنه يطرح وراء ظهره عوامل الافتتان ومظاهر الاغراء ويستقبل بوجهه روحانية عالية ، يوجه إليها شعوره ووجدانه ، فما يكاد ينطق

لسانه : الله أكبر ، حتى يدخل في هذه الخطيرة المقدسية إلى كنف هذا العلي الكبير ، ويحتفى في جلال هذا القوى العزيز ، وينعم بالتقرب من هذه العزة الغالبة التي تغشاة وتولاه ، وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إذا قام أحدكم إلى صلاته فإنما يناجى ربه فليُنظرَ بـم يناجيه » ؟ ويقول : « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد » ، فسا يكاد العبد يفرغ من صلاته حتى يكسب عزة من عزة الله ، وحتى يبلغ جلالاً من جلال الله . أما المنفق في سبيل الله — زكاة أو صدقة — فإنه لكذلك عزيز ، لأنه يقوم عن الله خليفة في طعمة المحروم ، ووصلة الممتطوع ، وغوثة الملهوف ، والله عز شأنه يقول : « آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه ، فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير » .

وعزيز لأنه يقرض الله قرضاً حسناً . فهو يتعامل مع ربه ، ومعاملة العزيز عزة . وعزيز لأن يده العليا قد أعزها الله بالغنى ، ولأن اجماع الناس على حبه وحده والدعاء له اعزاز له من أجل فضل الله الذي واثقهم به ، فهو عزيز في نفسه ، وعزيز في قومه ، وعزيز عند ربه .

يد المعروف غنم حيث كانت تحملها ، ككفور أم شكور
ففي شكر الشكور لها جزاء وعند الله ما كفر الكفور

والصائم عزيز في ترفعه عن الاستجابة لحاجة نفسه من طعام وشراب ، وعن الخضوع لما آثم الهوى ومآرب الشهوات ، فهو قد كف نفسه عن كل ما يفسد صومه ، وهو قد تسامى إلى مصاف الملائكة الذين لا يطعمون ولا يشربون ، ولا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .

كذلك من يحج بيت الله ، ويغد ضيفاً على رسول الله ، ويبر حجه وزيارته بإخلاص التلبية ، وطهرة التزكية ، فيطوف بالبيت منياً تائباً ، ويشهد المناسك في غير تأثم ولا عصيان . . فهو العزيز بضيافة الله وتكريم الله ، روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من حج فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه » .

وأما عزة الآخرة فهو ما ينتظر هؤلاء الأكرمين ، يوم يقوم الأشهاد :
في إلى ظل الله يوم لا ظل إلا ظله ،

سموً وغار يديه به عملهم وأملهم : هاؤم اقرأوا كتابية ، إني ظننت أنى ملاق حسابية ، سبق إلى متعة النعيم الخالد فى دار أعدةا الله لهم ، وتلقاهم الملائكة ، هذا يومكم الذى كنتم توعدون . ثم تحييمهم أطيب تحية بالآمان والسلام ، قال تعالى : والملائكة يدخلون عليهم من كل باب ، سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار .

ثم ماذا لهؤلاء الاعزة الاكرمين ؟ ثم نداء الله لهم يا أهل الجنة ، فيقولون لبيك ربنا وسعديك والخير كله فى يديك ، فيقول هل رضيتم ؟ فيقولون : وما لنا لا نرضى يا ربنا وقد أعطينا ما لم تعط أحداً من خلقك ، فيول : ألا أعطيكم أفضل من ذلك ؟ فيقولون وأى شئ أفضل من ذلك فيقول : أحل عليكم رضوانى فلا أضبط عليكم بعده أبداً . . . يا لله ؟ أى عزة أسمى ، وأى كرامة أوفى ، وأى جلال أعظم من هذه السعادات المتعاقبات المتناسكات ؟ ؟

ألا تكون العزة لمن يطلبها من الله بعزة النفس المترفعة عن الدنس والنقص ، وبعزة العمل الصالح الخالص مما يشبهه ويشينه . ألا يكون طلب العزة هذا قريب الاستجابة كريم المنال ؟ ؟

أى والله ، إن العزة لله جميعا ، إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ، وأى كلم أطيب من كلمة الإسلام ، وشهادة التوحيد ، تنعطر بها الألسنة ، وتصدقها القلوب ، وتدعن لها الجوارح ؟

وأى عمل أصلح من عبادة يسمو بها الناس ، وخلق يسعد به الناس .

يا معشر المسلمين . .

يهتف بكم كتاب الله : أن اطلبوا العزة من العزيز ، بصدق العقيدة ، وصالح العمل ، وينادىكم حديث رسول الله : إن ربكم يقول كل يوم : أنا العزيز . فمن أراد عز الدارين فليطع العزيز . .

وصدق الله العظيم من قائل : قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد ، فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً . .

وبعد : فالمستعان هو الله ، أن يكتب للمسلمين العزة . وأن يمكن لهم فى دينهم ، وفى ديارهم وأن يجمع كلمتهم على الخلق الكامل ، والعمل المبرور إنه أكرم مسئول

الشباب وكيف نعده

لفضيلة الأستاذ الشيخ أبرو الوفا المراهقي

مدير المكتبة الأزهرية

شباب اليوم رجال الغد وقادة الأمة وأولو الرأي فيها ويدهم مقاليد سياستها وبمقدار توفيق الأمة في اعداد شبابها يكون مستقبلها ودرجة النهوض فيها .

وقد مضى زمن كان من وسائل اعداد الشباب أنه يحسن القراءة والكتابة بل كان ذلك هو الوسيلة الوحيدة ، أما في هذا العصر فقد تشعبت الوسائل تبعاً لتنوع فروع العلم والمعرفة وتقدمها ، وأصبحت مراحل التعليم بأنواعها والشهادات بأنواعها لا تنفي بتكوين الشباب تكويناً يعده لنحل رسالته بل لا بد له مع ذلك من دراسات شخصية عميقة يعتمد فيها على نفسه لا على مدرسه ومدرسته ولا بد له من اختبارات عملية للحوادث وللأشخاص ليستطيع أن يراحم في الحياة على بصيرة بأحوالها وخبرة بشؤونها :

حياة الورى حرب وأنت تريدها سلاماً وأسباب الكفاح كثير
أبت سنة العمران إلا تطاحناً وكدحاً ولو أن البقاء يسير

ولا بد للشباب مع ذلك الاعداد العلى من تسليح ديني وخلقى يقيه السوء في عتيدته ونفسه ويصونه من مصارع الهوى ومواطن الغواية ويجعله ذا شخصية متماسكة قادرة على تحمل الشدائد وتذليل الصعاب وعلى قول الحق والجهر به ووزن ما يعرض عليه من مذاهب وآراء ليعرف وجه الخير فيها لنفسه وأمة فيقبلها أو يرفضها عن معرفة واقتناع .

لا بد للشباب من ذلك كله ليكون ركناً قوياً في كيان أمة وقدوة يقتدى به لا إمامة يستجيب لكل ناعق وتتجاذبه التيارات هنا وهناك .

فستولية الشباب في هذا العصر ثقيلة مرهقة لا ينجح في حملها والاضطلاع بها إلا من وهب لها نفسه وجهده ووقته ، وأن من أهم العوامل في تكوين شخصية الشاب هو الدين ، فالدين وأساسه الإيمان بالله والرضا بقضائه وقدره ، والاعتماد في الشدائد عليه ، يجعل منه رجلاً مطمئن القلب ساكن النفس ، يقبل على عمله في ثقة ويعتمد في نجاحه بعد إعداد الوسائل على معونة الله وتوفيقه ويرضى بفتيجته على أى حال ، والدين بعد ذلك يغرس فيه كثيراً من الفضائل الشخصية والاجتماعية التي تجعل منه مواطناً صالحاً يساهم في بناء أمته وانهاضها ويدفع بها إلى منازل العز بين الأمم ، ويغرس في نفسه فضيلة الشجاعة والصدق والإخلاص والبر بالضعيف وإغاثة اللئيف ، والإيمان بالفكرة الصحيحة والدفاع عنها بكل عزيز . كما يغرس في نفسه احترام حقوق الغير وأموالهم وأعراضهم .

وعلى حكمة الشيوخ وجهود الشباب تنهض الأمم وتنجح الدعوات ، ولقد لعب الشباب الإسلامى قتيانه وفتيانه . دوراً هاماً في نجاح الدعوة الإسلامية ، وقاد كثير منهم الجيوش ، وفتحوا المدن وساسوها بالعدل والإحسان ، فاجتمعت عليهم القلوب ورضيت عنهم الشعوب . والمتصفح للتاريخ الإسلامى يقف على أمثلة رائعة لجهاد الشباب وإيمانهم بفكرتهم ، واستعدادهم الألم في سبيل نجاحها .

وحسبنا أن نورد في هذا الصدد مثلين ليسكون فيهما لشبابنا ذكرى وقوة :

١ — لما عزم النبي صلى الله عليه وسلم على الهجرة وعلمت قريش بعزمه انفقت على قتله ليلة الهجرة فأمر علياً رضى الله عنه أنه ينام في فراشه بدلاً منه ليخادع قريشا عنه فقميل على وهو يعلم أن القتل قاب قوسين منه ، ولكنه قبل ذلك بنفسه راضية مطمئنة فنجح النبي صلى الله عليه وسلم ونجحت الدعوة .

٢ — اسلمت فاطمة بنت الخطاب قبل إسلام أخيها عمر رضى الله عنهما وهى دون العشرين . وكانت تكتم إسلامها منه لشدة فلتها علم بذلك دخل عليها ، وقال : بلغنى عنك أنك صابت « خرجت عن دينك » ثم ضربها ووثب على زوجها فضرب به الأرض وجلس على صدره فجاءت تمنعه منه فشج وجهها وسال دمها فلما رأت الدم بكت وقالت له : أتضربنى يا عدو الله على أن أوحده الله لقد

أسلنا على رغم أنفك يا ابن الخطاب فما كنت فاعلا فافعل وفكر عمر فيما فعل
وندم عليه وما زال به تفكيره حتى قاده إلى الإسلام وكان إسلامه عزا للإسلام
وكان عمر كما روى عنه التاريخ .

هذان مثلان مما رواه التاريخ في جهود الشباب ونضاله وهما حسنا
في هذا السبيل .

تلك هي بعض العوامل في تكوين الشباب أوصيهم بها ولا يفوتني أن أتهمهم
إلى ضرورة الأخذ ببعض النشاط الرياضي فهو من خير الوسائل في إعدادهم عقليا
وخلتيا وجسميا كما أنه ذو أهمية كبرى في حياتهم لأنه يشغل فراغهم ويصرفهم
عن مواطن اللهو ومواقف الخلاعة التي تسبب لهم كثيرا من العلل النفسية
والجسمية وتضع لهم العقبات في سبيل الحياة السعيدة .

أخو السوء

قال أيوب بن سليمان عن ابن القاسم قال : بينما سليمان بن داود عليهما السلام
تحمله الريح إذ مر بنسر واقع على قصر ، فتمال له كم لك منذ وقعت ههنا ؟ قال
سبعائة سنة . قال فن بنى هذا القصر ؟ قال النسر لا أدري هكذا وجدته . ثم نظر سليمان
فاذا فيه كتاب منثور بأبيات من الشعر وهي :

خرجنا من قرى اصطرخ	إلى القصر فقلناه
فن يسأل عن القصر	فبينا وجدناه
فلا تصحب أخا السوء	وإياك وإياه
فكم من جاهل أردى	حكما حين آخاه
يقاس المرء بالمرء	إذا ما المرء ماشاه
وفي الناس من الناس	ممايس وأشياه
وفي العين غنى للعي	ن أن تنطق أفواه

خداع الحياة

لمفضلة الأستاذ الشيخ إبراهيم علي أبر الحبيب

المدرس بكلية الشريعة

ليس في استطاعة البليغ الماهر، والمصور المبدع، والأديب الأملحى، والكاتب الصنع، مهما أوتي من قدرة على الإجابة، ودقة في التعبير، أن يحيط بوصف الحياة في خداعها الكاذب، وغرورها الخلاب، وسراياها البراق، ونفاقها المكشوف، وتلونها المفضوح، بأحسن من قول القرآن فيها «كأن أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح»... ونحن قد قرأنا للشعراء في هذا المعنى روائع الكلم وجوامعها، ومررنا بأمثالهم فيها، وتشبيهاتهم لها، مرور الذي يسببه السحر، وبأخذه البهر، ويملك عليه حسنه الجمال الفاتن، ورددنا ذلك كله ترديد الإكبار والإعجاب، ولكن لم يبلغ مبلغ الآية في طنطنتها ودويها، وجلجلتها وهول تصويرها، فإنها لا تكتمني بذكر الماء يخالط الأرض فيوقظ فيها النبات إلى النماء والخضرة والازدهار والترعرع والإثمار والتمطاف والحصاد دون أن تجعل ذلك رواية تمثيلية يقبل عليها المتفرجون بشغف وشوق ثم يذهبون إلى إسدال الستار على نهاية لازمة، ومصير محتوم... وعلى الرغم من أن الله سبحانه وتعالى لم يتركنا لأحلام اليقظة تلعب بعقولنا، وتعبث بأفئدتنا، وتصرف خيالنا - الوهم - كما تشاء. بل أقام لنا من عالم الإدراك ألف دليل ودليل على أنها وشيكة الزوال، سريعة الانتهاء، مطلية بالغرور، مخفوفة بالباطل، مملوءة بالحن. موسومة بالدنيا، لا تزال كلما أمكنتنا الفرصة من الترامي على أعتابها، والتهافت على أبوابها، والتعلق بأذيالها، والتكالب عليها، والتفاني في حطامها الفاني ونرتكب في سبيل الوصول إلى أهدافنا أشنع الأساليب، حتى إذا ما أخلدنا

الى خلوتنا ، وانقطعنا الى رويتنا ، ونغمنا بيننا وبين خلجات نفوسنا « قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون قليلا ، لم يلبث ذلك الا نعاظ أن يتبخر في الهواء ثم يتصاعد من رؤوسنا الى طبقات أخرى من السماء .

ومن الغريب أن هذا المقدار من الإيمان يستوى فيه المؤمنون والجاحدون ، ويدعن بصدقه العالم والجاهل ، ولا يشك في حقيقته كبير ولا صغير ، وإذا كانت وسائل الإيمان تختلف ، فإننا جميعنا ننتهى إلى نهاية من المعرفة كان من شأنها أن تجعلنا لا ننظر إليها إلا بالمنظار « الأسود » فلا نطلبها إلا على قدر ما تمس إليه الحاجة القصوى ، وتمتضيه الضرورة الملحة .

وليس هنالك من ينكر أن الله سبحانه وتعالى أودع فينا من الطباع والغرائز ما يحملنا على تنازع البقاء ، وحب التملك والسلطان ، والسيطرة والسيادة ، ولكن هذه كلها إنما تدفع إلى نشدان « المل الأعلى » بحيث لا يذل الفرد للفرد ، ولا يخضع الإنسان لأخيه الإنسان خضوع الاستكانة ، وينقاد له انقياد العبودية التي هي لله وحده لا شريك له .

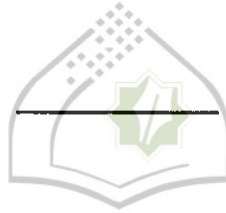
وفي الكتاب الكريم ما يدل على أن الله سخر الكون لبني آدم يستخدمونه لمصلحتهم ، ويصرفونه في منافعهم ، ورسالة الواحد منا في هذا الصخب لا تتجاوز الإصلاح الذي يعود عليه وعلى الناس في حدود العمران والنهوض ، والتقدم والرقى ، ونرى الدين الإسلامى - ولعل الأديان الأخرى كانت هكذا - يكبح ما عساه أن يكون من طغيان الغرائز ، وطيش المطامع ، وثورة الشهوات ، فيأمرنا بالتقوى والورع ، والقناعة والزهد ، والإحسان والإيثار ، والتآلف والمحبة ، لتتطفئ فينا تلك الحدة التي تدفعنا إلى الاقتتان بهذا الزخرف الكاذب ، والمتاع الخادع . والظلال السريعة الانتقال ، فتكف عن الشرور والآثام . والتكالب والطمع ، بما تثيره الافراد والجماعات ، من خصومات ظالمة ، وحروب غاشمة ، جعلت هذه الحياة ، مسرحاً من مسارح الجحيم ، تمثل عليه فصول العدوان ، ومناظر الدمار ، وأشباح الخراب والهلاك ، وصارهم التموى أن تتنافس في جعلها « جهنم الحمراء » لا أكثر ولا أقل .

ولم تضق الحياة بنا ولكن زحام السوء ضيقها مجالا
ولم تقتل براحتها بنفها ولكن سابقوا الموت اقتتالا

وربما قال قائل هذه سنة الله ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ، والدول في تصارعها ، ووقوفها على هذه الشاكلة ، لصد التيار ، وكبح الظلم ، ورد المطامع ، هو الذى يحفظ التوازن ، ونحن مع تسليمنا بأن الآية تهدف إلى سنة من سنن الكون ، وأسلوب من أساليب العمران ، لا نعتقد أن الحال القائمة الآن يدفع إليها الرغبة فى الإصلاح . والميل إلى العمران ، والحب فى الخير ، والجنوح للسلم ، بل هى حال أشبه بمصارعة النيران ، ومهارشة الديكة ، وسعار الكلاب ، وكنا نظن أن الأمم الكبرى مدفوعة إلى ذلك كله بباعث التوسع فى السلطان ، والاستزادة من السيادة ، والبحث عن أسواق عالمية لتصريف محصولاتها الصناعية أو الزراعية . ولو صدق ذلك لقلنا ما يتولى المثل العربى : « حر انتصف نفسه ، واتمسنا العذر لنقوم نحملهم غرائز الأحياء أن يطلبوا حياة مثالية . وينشدوا عيشاً رغيداً .

أما والدنيا تموج بتلك الشرور ، والعالم يعجّ بهذا القلق ، كأن الميادين لا تزال تقذف بالنار ، يختر فيها ألوف الموتى . فإننا لا نستطيع إلا أن نقول إن الخلووم قد طاشت . والطباع قد فسدت . والغرائز قد انتكست . والنهاية قد آذنت بزوال وأن الرواية موشكة أن تم فصولها . . . ونحن الذين ورثنا الكتاب والسنة ، ودرسنا الآيات والسور ، قد يبدو لنا فى بعض الأحيان أن نقول عن أصحاب هذا « الصراع » ، إنهم لم يجدوا من الوازع الدينى ما يستلهمونه الهداية ، ويرجون منه الصراط المستقيم ، وليس بعد الكفر إلا الضلال . فما الذى نقوله لأنفسنا فى تفكك جماعتنا ، وتفرق كلمتنا ، وتوزع وحدتنا . ووهى قوتنا . . . وفى الوقت الذى يأمرنا ديننا أن تعلقو إرادتنا ، ويسود سلطاننا ، ويعز جانبنا . وتكون المقادة بأيدينا . تفرقنا أيادى سبأ ، ثم لم نسكتف بأننا سوقة ته نصف - كما يقول الشاعر - حتى أصبحنا لا يلوى الفرد منا على غير هواه يتموده ، وطمعه يتولى زمامه ، وشهوته تدفعه ، ثم لا ينظر فى ذلك إلا لإشباع نهمه . دون نظر إلى حلال وحرام ، وشرف وخس ، وسمو وإسفاف . . وما كان هذا كله إلا لأنها فتة العيش ،

وسراب الدنيا، وخداع الحياة، وزائف المجد، وباطل الآمال، وكاذب الأمانى. وفي كل يوم يسوق الموت لنا من الأنباء والنذر ما يصح معه أن نتعظ أو نفيق، ونعتبر أو نصحو، ويدهمنا القطار، أو تصدمنا السيارة، ولا يكون بيننا وبين أن نلفظ النفس الأخير، إلا أن تدركنا رحمة اللطيف الخبير، وهناك وفي تلك اللحظات الخاطفة نتصور قول النبي صلى الله عليه وسلم: «الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا»، غير أننا لا نلبث أن نعود أشبه بالمخمور الذي يقول «وداوني بالتي كانت هي الداء، وصدق الله العظيم: «وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً، فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى مسه... فاللهم ألهمنا الرشداً، وارزقنا الإفاقة، ولا تكلنا إلى سيئات أعمالنا، وشرور أنفسنا، واجعلنا لا ننظر إلى الحياة إلا لمنظارها.



مركز تحقيق وتطوير علوم إسلامي
الصادق

قال حكيم: الإخاء جوهرة رقيقة وهي ما لم ترقها وتحرسها معرضة للآفات، فبرّض الأبى بالحُداء له حتى تصل إلى قربه، وبالكظم حتى يعتذر إليك من ظلمك، وبالرضا حتى لا تستكثر من نفسك بالفضل، ولا من أخيك بالتقصير.

قال عبد الصمد بن المعدل:

من لم يردك ولم ترده لم يستفدك ولم تفده
قرب صديقك ما نأى ورد التقارب واسترده
وإذا وهت أركانه ومن أخى ثقة فسده

وقال أبي حازم:

إن ساءنى صاحبي احتملت وإن سر فيأني أخوه شاكره
أصفح عن ذنبه وإن طلب العذر ر فيأني عليه عاذره

مجدنا في ديننا

لفهيد الشبخ محمود حميد

المدرس في كلية اللغة العربية

التدين فطرى في الإنسان ، والفطر السليمة تدعو العبد إلى الإخبات لمن تولى خلقه وتعهد بقاءه . وما انحرفت تلك العقيدة عن وضعها إلا نتيجة صدام أصاب الفطر وعتامة رنت على القلوب فجعلت الأبصار قاصرة والبصائر حائرة وتغلب إلف المرء لحسه فاتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم ، وقد أقام الله الحجة على العباد فأرسل فيهم رسله ليلم الإلزام ، وتمتطع الأعذار فلما فضجت الإنسانية بعد عمليات عنيفة في تطهيرها وتشذيبها ختم الله الرسالة بمحمد بن عبد الله ، وجعل دينه خالداً بما أودعه من تعاليم تكفل سعادة البشرية وتسمو بالحياة إلى ذروة ما يصبو له المصلحون .

لقد جاء الاسلام بمبادئ الإصلاح العام والأخوة الصادقة فدعا الناس جميعاً إلى الاجتماع بفنائه والانضواء تحت لوائه والوقوف عند حدوده والرمى بما وراء ذلك تحقيقاً لتوحيد الأمة في كيائها وتوحيدها في عقيدتها .

فإن ما جنته الإنسانية من صنوف العنف والغنى ألوانا كان نتيجة تفرق الكلمة ، وشق العصا وانقسام العرى وانقسام الجماعات .

وليس بدعاً أن نرى هذا الاختلاف بين الأمم المتباعدة في العقائد والمتباينة في الأهداف ، ولكن العجب العاجب أن تختلف أمة التوحيد بعد أن ربط الاسلام بين قلوبها ووجد بين شعوبها وأقام بها دولة الدنيا والآخرة في ظل كتاب لا يأتيه الباطل بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد .

لقد شمع نور هذا الدين فاستقرت به النظم واستقامت عليه الطريقة ، ووضع به ميزان العدالة في الأرض ، وكان عجبا في كل نواحيه وهديا في كل مراميه . فما من شاردة ولا واردة إلا ولها فيه حكم معلوم وطريق مرسوم .

تناول الأفراد والجماعات والأحرار والعبيد والرجال والنساء والأحر والاسود والعقيدة والسياسية والبيت والمدرسة والطريق والنادى فهو رابطة عامة بين الإنسان وأخيه وبين الإنسان وخالفه ، وهو رابطة تهدف إلى السكال في اسمي معانيه وأرفع مقاصده .

فما من غاية إصلاحية ولا فضيلة بشرية إلا ومصدرها منه ومرجعها إليه فهو رمز للوطن ورمز للعلم ورمز للسياسة ورمز للديمقراطية ورمز لغير ذلك من معان ابتكرها من فقهها وأثبتت بها من سلبها ، وإذا كان من الأمم من أعوزته المبادئ السامية والنظم القويمة والأخلاق الفاضلة فأخذ ينو بصره إليها حتى أصاب منها ، وجعلها أساسا لحضارته ودعامة لمجده فإن من العجب أن تتخلي الأمة الإسلامية ذات المبادئ الرشيدة والأخلاق الفاضلة عن مقوماتها ومدعماتها حتى أصبحت مهدا للغاصبين وغرضا للغرضين .

لم بين الإسلام حضارته على مادة محضة كما فعل الأوروبيون الحديثون ولا على روحانية محضة كما فعل الأقدمون ، وإنما جعل أساس دولته يرتكز على الأمرين ، ويعتمد على السبيين فكانت نهضته مادية روحية ، وكانت سيطرته إصلاحية دينية فهو دين ودولة وعلم وعمل ودنيا وآخره ، ولن يجد المسلم غناء في غيره مهما زينت له وسأوسه وصورت له أو هامة .

وأمة اختصها الله بهذا الدين جدير بها أن تتخذ تعاليمه نبراسا تهتدى به في ظلمات الوجود وتسير عليه في شعاب الحياة ، فلا أضل ممن أطفأ مشعله في ليل بهيم وهو يفتش عن ضالة منشودة ورغبة مقصودة ، إن مروق كثير من الشبان ووقوعهم في غياهب الجهالة وظلمات الخيرة إنما هو نتيجة حتمية لهذا الانحلال الذي أصاب الدولة الإسلامية في صميمها وهو لا بد سائر بهم إلى التحلل من العقيدة الصحيحة وواصل بهم إلى الزيغ والإلحاد .

وليس هناك ما يدفع هذا البلاء ويرد هذا الضغيان إلا أن يتغلب سلطان الدين

على النفوس ولا سبيل إلى هذا التغلب إلا أن تتغلغل تعاليم الإسلام الصحيحة وتنتشر مبادئه بين الأفراد والجماعات فتزى الفرد مسلماً والتاجر مسلماً والبيت مسلماً والمدرسة مسلمة والعامل مسلماً والأمة مسلمة والحكومة مسلمة .

عند ذلك يتبوأ الإسلام مكاته ويأخذ وضعه ويعيش المسلم عيشة الأحياء الناطقة لا اليهائم الهائمة .

إن كل نهضة إصلاحية لا تبنى على أساس من الدين والأخلاق لا يقر لها قرار ، ولا يستقيم لها وجود ، فيجب أن نعتمد في نهضتنا على ديننا وهو دين سلم وحرب وإيمان وعمل وصناعة وزراعة وحياة وموت وجنة ونار .

إن البيت المسلم يجب أن تظهر في جوانبه تعاليم الدين الخفيف فتزى الأبناء صورة الإسلام ممثلة في آبائهم وأمهاتهم وذويهم وأن المدرسة الإسلامية يجب أن تدعم مناهجها بدراسة الدين فهو أجدر العلوم بالعناية وأولاها بالرعاية ، فنه تكون الأخلاق ومن الأخلاق تكون الأمم .

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وإن الفرد المسلم أيا كان طريقه في مسالك العيش ونظام الحياة يجب أن تظهر عليه دلائل الدين وعلامات الإيمان فتزى من الزارع المسلم أن يكون مسلماً ومن الصانع المسلم أن يكون مسلماً ومن الخضم المسلم أن يكون مسلماً ومن القاضي أن يكون مسلماً فإن الإسلام جماع الفضائل وأساس العمران وهو وحده كفيل ببث الطمأنينة في النفوس وتهذيب القلوب ونشر ألوية السلام في ربوع الأرض فقد عم القلق وشاع الفساد وكثرت المطامع واتسع الظلم وتبرم الحق .

وإن الحكومة الإسلامية يجب أن تبرهن للناس على صدق إيمانها فتزىهم من نفسها مثلاً من أمثلة المسلمين الصادقين الذين ينشر الله بهم الدين ويرد بهم كيد الخائنين « وأن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن » ويرد بالسيف ما لا ترده العبرة .

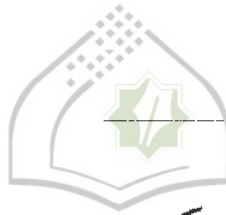
وإن الأمل ليملاً جوانبي ثقة بأن أمراء المسلمين وقادتهم قد اقتنعوا بضرورة رد الأمة إلى دينها حتى تملأ به القلوب ، فلا تفتح لقبول الأفكار الهدامة ، والمبادئ الفتاكة من كل ما عكر صفو الوجود وكدر الحياة في نظر العاملين .

ولقد خطت بعض الدول خطوات مباركة لتشجيع التعليم الديني وإحياء المدرسة الإسلامية من جديد ، وها هو ذا الأزهر العتيق ، ثمرة القرون ومعهد المسلمين ، ومعقد آمالهم ، يرسل بعوثة إلى مختلف البلاد الإسلامية ، ويفتح أبوابه لمن يفد إليه من أبناء المسلمين تحميلاً لهذه الغاية النبيلة ، ورغبة في بث تعاليم الدين الحنيف مكن الله له حتى يؤدي رسالته ، ويبلغ دعوته ، فإن في عنقه الآن الدعوة إلى الله ونشر كتاب الله .

وإني أتمثل بالأثر الخالد متضرعاً متوجهاً لمن يملك النواصي فأقول :

اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض .

وفق الله ولاية أمور المسلمين أن يشدوا أزرد ، ويردوا عليه هيئته ويقوموا بنصره وتأنيده .



مركز تحقيق كرم

مدح ربيعة الراقي يزيد بن حاتم الأزدي وهو والى مصر ، فاستبطأه ربيعة فرحل عن مصر وقال :

أراني ولا كفران لله راجعاً بخفي حنين من نوال ابن حاتم

فبلغ قوله يزيد بن حاتم الأزدي ، فأرسل في طلبه فرد إليه ، فلما دخل عليه قال له أنت التماثل : (أراني ولا كفران لله راجعاً) ، قال نعم ، فتماثل له هل قلت غير هذا ؟ قال لا والله . قال لترجعن بخفي حنين مملوءة مالا . فأمر بخلع نعليه وملأته مالا . فقال فيه لما عزل عن مصر وولى بدله يزيد بن حاتم التميمي ، فتماثل ربيعة من أبيات :

فشتان ما بين اليزيديين في الندي يزيد سليم والاعر ابن حاتم

فهم الفتى الأزدي إنفاق ماله وهم الفتى التميمي جمع الدراهم

اعلام الانوار

الشيخ حسن قويدر الخليلي

المتوفى سنة ١٢٦٢ هـ - ١٨٤٥ م

نفضلة الأستاذ الشيخ محمد طاهر الفقي

المدرس بكلية اللغة العربية

نشأته وحياته :

هو « حسن » بن « علي قويدر » . كان مولده « بمصر » سنة ١٢٠٤ هـ ، وأصل أسرته من المغرب ، استوطن أحد أفرادها « الخليل » من بلاد فلسطين ، واشتهرت ذريته بالمغاربة ، ثم نزع منها إلى « مصر » والده « علي » في تجارة وأقام بها ووهب المترجم ، فلما بلغ أشده ألحقه بالأزهر لطلب العلم فيه ، فتلقى العلوم والآداب على كبار شيوخه وجلة أساتذته من أمثال الشاعر الناثر العالم « الشيخ حسن العطار » و « الشيخ إبراهيم الباجوري » فتخرج عليهم في اللغة وعلومها والآداب وفنونه ، ولا سيما الأول الذي كان من ابنه الأزهرين في الأدب شأناً ، وأبعدهم في فنونه صيتاً ، وكان « قويدر » رغبة فطرية في الأدب وهوى للغة وعلومها ، ومعرفة خفاياها ، واكتناه دقائقها ، فبرع في ذلك وجود ، وأنشأ الفصول ، ونظم الشعر وحرر الرسائل ، ودارت بينه وبين كتاب العصر محاورات ومراسلات ، وأمه الناشئون من عشاق الأدب والشعر فأفادوا منه ونشروا فضله .

ولم يعرف أن قويدرا شغل منصباً ، أو زاول عملاً حكومياً ، ويظهر أنه كان عزوفاً عن الوظائف وقبوحاً فلم يسع لها ، وربما واته دون عناء لو انصرف لها ،

ولكنه كان يتجر فيما أورثه والده من المال شركة مع بعض السوريين الذين كانوا يرسلون إليه بضاعة سورية ، ويرسل إليهم أخرى مصرية .

ولم تكن التجارة لتشغله عن العلم والأدب ، فنال منهما حظاً وافراً ، وأعطاهما فراغ وقته فصنف الكتب ، وشرح المؤلفات .

وكان رحمه الله جواداً سخياً يبذل كثيراً مما يفد إليه من ربح تجارته الوارفة الظلال ، كما كان عفيفاً أميناً يرعى الود ، ويصون لسانه عن الخوض فيما يؤذي الناس ، اللهم إلا إذا استفزه الدفاع عن نفسه ، فإن له إذ ذاك لشأناً كما فعل مع « عاقل أنندي » في رسالة « الأغلال والسلاسل » .

وقد كانت وفاته في شهر رمضان سنة ١٢٦٢ هـ فرثاه الشعراء ، وبكاه الأدباء ومنهم تلميذه الشاعر المشهور « محمود صفوت الساعاتي » الذي زعموا أنه رأى وقويدر في منامه قبل وفاته بثلاث ليال ميتاً فانتبه قائلاً : رحمة الله على حسن

١٠٨ ١١٠ ٦٦ ٦٤٨

قويدر . لحسب مجملها فكان تاريخاً لسنة وفاته (١) .

٣٢٠

والساعاتي هو الذي رثاه بقوله :

بكت عيون العلا وانحطت الرتب ومزقت شملها من بعدك الكتب
ونكست رأسها الأقلام باكية على القمراطيس لما ناحت الخطب

ويقول فيه أيضاً :

قالوا قضي حسن المناقب فارثه فأجبتهم ومدامعي تحدر
لا أستطيع رثاء من لمصابه أضحي لساني في في يتعثر

نثره :

نثر الشيخ حسن قويدر ، يجري مجرى الصنعة ، ويبدو عليه أثر العمل والتكلف ويلتزم الجناس فلا يفلت منه ، وليس بمعجب أن يكون أدبه كذلك ، وأن يكون

طابعه الزخرف والطلاء ، وقد كان ذلك أدب العصر ، وطريقته الملتزمة ، على أنه تلميذ « للشيخ حسن العطار » ، وثمره من ثماره ، وكان « العطار » أستاذه ممن يلتزمون السجع في رسائلهم ، ويولعون بالصنعة في كتاباتهم ، وكتاب « إنشاء العطار » على ذلك شهيد .

ولكن « قويدر » رغم متابعتة للعصر ، ومسايرته لأستاذه ، غير معن في التعقيد ولا مفرط في الاستغلاق ، بل إن نثره أقرب — على قيوده وتكلفه — إلى الوضوح والرصانة .

نموذج من نثره :

ومن نثره ما قاله في خطبة شرجه لكتاب

« ومن شغني بتلك العرائس الخواطر ، حملتني بواعث الخواطر ، على أن أكتب عليها شرحا وأبني على دعائمها صرحا ، وأشد بنطاق البلاغة لها كشحا ، فوقفت على أقدامي ، متردداً في تأخري وإقدامي ... وشددت نطاق العزم ، وتقلدت بصارم الحزم ، وقومت سنان يراعى ، وبسطت في حومة هذا الميدان باعى ، وإنى لأرى التوفيق يتوم أمامى ، والعناية تقود زمامى » .

شعره :

شعر « قويدر » يميل إلى الزخرف والطلاء ، ولكنه يتفاوت قوة وضعفاً ، حسب إغراقه في التكلف ، أو لطفه في تناوله ، وكلما كان أكثر تعملاً كان أكثر تعقيداً ، وهو غير ملتزم طريقة واحدة ولا نهجا واحداً .

فمن شعره الذى يميل إلى السهولة ولا يفرق في المحسن والصنعة ما قاله ناصحا :

يا طالب النصيح خذ منى محبرة	تلق إليها على الرغم المقاليد
عروسة من نبات الفكر قد كسيت	ملاحة ولها فى الخلد توريد
كأنها وهى بالأمثال ناطقة	طير له فى صميم القلب تغريد
احفظ لسانك من لفظ ومن غلط	كل البلاء بهذا العضو مرصود

واحذر من الناس لا تركز إلى أحد
 واطن الناس في ذا الدهر قد فسدت
 هذا زمان لقد سادت أراذله
 قلنا لهم هذه أيامكم (سودوا)
 ويقول في شرحه على منظومة «القطار» :

منظومة الفاضل القطار قد عبت
 لولم تكن روضة في النجوى يانة
 في ظلمة الجهل لو أبدت محاسنها
 قالوا جواهر لفظ قلت لا عجب
 منها القلوب برياً نكهة عطره
 لما جنى الفكر منها هذه الثمره
 والليل داج أرانا وجهه قره
 بحر البلاغة قد أهدى لنا درره

فأنت ترى أن تخفيفه من المحسنات البديعية أكسبت شعره طلاوة، ولم ينفر
 الذوق منه، أو تنصرف النفس عنه.

ومما قاله وأسرف في الجناس فيه قوله :

فشمر الغصن عن الساق وقد
 وقال جمرى بكلامكم وقد
 جرد سيفاً لرقابهم وقد
 أنا الذي أشبه أعطافاً وقد
 أحملكم وتجهلون قدرى

(فقد) دارت كلمة (وقد) في هذه الأشطر خمس مرات بالواو وبغيرها،
 فكانت حرفاً مقرونًا بالواو في الشطر الأول، أما قوله «وقد» في الشطر الثاني
 فيحتمل أن يكون إسمًا بمعنى النار واقعاً صفة «سيفاً» أي سيفاً هو النار لرقابهم
 وأن يكون فعلاً بمعنى اتقد أي سيفاً اتقد، وقوله بكلامكم «وقد» محتمل أيضاً
 المعنيين أي جمرى نار، أو اتقد وقوله في الشطر الرابع أشبه أعطافاً وقد، جاءت
 فيه هذه الكلمة على معناها الحرفي مع الاقتران بالواو، «وقد» الأخيرة، جزء
 من قدر المضاف إلى ياء المتكلم.

فقد أرهاق الشاعر نفسه وشعره بهذه الكلمة التي وضعها خمس مرات في خمسة
 أشطر وضعاً مختلفاً فيه : تهافت عبث بالمعنى وعقده، وتكلف ذهب بجهال
 الشعر وأفسده.

ولقويدر مزدوجات أفئتن في صياغتها ، وبرع في نظمها ، إلا أنها محتملة كثيراً من التكلف ، موسومة بالنزعة العلمية في غير موضع ومنها قوله :

رأيت بدرأ فوق غصن مائس يخطر في خضر من الملابس
ويسحر العقل بطرف ناعس وهو بشوش الوجه غير عابس
كأن ماء الحسن منه يحمرى

خاطرت لما أن رأيته خطر وحر ففكرى في بهاذك الحور
وقلت لا والله ما هذا بشر ومن بشمس قاسه أو بقمر
فليس عندى بالانمياس يدري

وكلمة القياس هنا من مصطلح علم المنطق الذى تأثر الشاعر به :
فلفظه العذب لقلبي قوت كأنه الدر أو الياقوت
وسحره إلى النهى (مثبت) يعجز عن مثاله هاروت
وهو الخلال من صنوف السحر

الحسن شيء ما له تمثيل وكل وجهه حازه جميل
والنفس دائماً له تمثيل وصاحب العز له ذليل
في قيد أسر نهيه والأمر

والنهي والأمر كلاهما من مصطلح علم النحو كما ترى ، وشعره متفرق لم يجمع
في ديوان .

آثاره العلمية والأدبية :

للشيخ « حسن قويد » آثار لغوية قيمة ، ومؤلفات أدبية جميلة ، غير أن
كثيراً من هذه الثروة القيمة لا يزال مخطوطاً لم يطبع ، وكثيراً منها عبثت به الأيام
فخرمت الانتفاع به الأفهام والأفلام .

ومن أهم هذه المؤلفات :

« نيل الأرب في مثلثات العرب »

وهو كتاب جليل جمع فيه المؤلف ما يثلث من الألفاظ العربية بالحركات ،
نظمه في أرجوزة حسنة السبك محكمة النظم ، يقول في مطلعها :

يقول من أساء واسمه حسن لكن له ظن بمولاه حسن
فكم لمولاه عليه من من بالعد لا تدخل تحت الحصر

وهي سهلة الحفظ واضحة غير معقدة ، وبهامشها فوائد قيمة ، فيها غنية لكل
أديب ، طبعت بمصر سنة ١٣٠٢ هـ وفي صدرها ترجمة للمؤلف بقلم الأستاذ محمد في
(وترجمت هذه المثلثات إلى اللغة الإيطالية بقلم « فيتو » المستعرب وطبعت الترجمة
في بيروت)^(١) ويقول في مقدمتها :

جمعت فيها الكلمات اللاتي تكون في الشكل مثلثات
أبدأ المفتوح ثم آتى بالضم لكن بعد ذكر الكسر
ثم يقول :

رتبتها كمعجم على التولاء ^{معتبراً للسباب حرفاً أولاً}
بذا أتت غريبة في الوضع يعشقها كل رقيق الطبع
وعدد أبياتها ٢٢١ بيتاً .

ومن مؤلفاته شرح منظومة العطار : وهي منظومة نظمها في النحو أستاذه
الشيخ « حسن العطار » ، وشرحها هو شرحاً دقيقاً قيماً ، والمنظومة مشهورة
يتداولها أبناء الأزهر .

وله كتاب يسمى « زهر النبات في الإنشاء والمراسلات » غير مطبوع .

وشرح على مزدوجته البديعة غير مطبوع أيضاً ، ويقال إنه كان واقعاً في
مائة ونيف كراسة ذهبت به الأيام^(٢) .

هذا عدا شعره المتفرق ، ومزدوجته المطبوعة المتداولة بين الأدباء .

(١) تاريخ آداب اللغة العربية زيدان ج ٤ ، ص ٢٥٨ .

(٢) أعيان البيان للسندوبى ص ١٨ .

الفقه السياسي عند المسلمين

للفقيه الشيخ محمود فباض

أستاذ التاريخ الاسلامي بكلية أصول الدين

من المسلمات العامة . أن الإسلام جاء غير مماثل لما سبقه من الأديان السماوية التي فصلت بين أمور العقيدة والعبادة ، ومسائل الحكم وتدبير المصالح الدنيوية لبنى الإنسان .

وإنما جاء الإسلام منظماً للسلوك العام للإنسانية في شتى نواحي نشاطها الحيوى ، فأصلحه للعقيدة في خالق الكون ، واختياره لنمط خاص في عبادة الله ، ورسمه لمنهج الخلق الحسن ، وتنظيمه للمعاملات الإنسانية العامة ، وسياسة الدنيا ، ومنهج الحكم ومبادئ العدل ، ومواجهة حاجات الاجتماع الإنسانى ، وغير ذلك مما عرض له الإسلام بالإنشاء أو التهذيب ، أخروياً كان أو دنيوياً مادياً أو معنوياً ، كل هذه المقررات يتألف منها الإسلام ، وبعبارة أخرى . كل ما قرره الإسلام من مبادئ وتشريعات تتعلق بالعقيدة والعبادة . أو تتعلق بالخلق ومنهج التربية . أو تتعلق بالمعاملات العامة . أو تتعلق بالحكم وسياسة الدنيا ، أو تتعلق بما يلزم حياة المسلمين الاجتماعية أو (المدنية) . كل ما قرره الإسلام في ذلك كله (من مبادئ وتشريعات) فهو دين لازم ، ليس للإنسان بصدده حق الاختيار في الفعل أو الترك . لأنه دين يجب أن يؤدي كما أراده المشرع سبحانه .

ولا تستطيع أن تفرق — في الإسلام — بين ما يمكن أن يسمى ديناً فقط أو سياسة فقط حتى يمكن الفصل بينهما ، ولهذا تجد علماء العقيدة (المتكلمين) يتحدثون عن الإله وصفاته ، كما يتحدثون على الخلافة والرياسة ، وقواعد الحكم ، وما يجب ، وما لا يجب ، أن يكون عليه الحكم . والحاكم ، والمحكوم ، وكذلك تجد

علماء الأصول يتحدثون عن مصادر الشريعة ، وأصول الأحكام ، ويتحدثون عن « الخلافة » والحكم ، وهل هي من الأصول أو من الفروع ، وإذا جئت إلى الفقهاء وجدتهم يتحدثون عن الطهارة والصلاة والحج ، أو البيوع والرهن والإجارة ، وإلى جانب ذلك تجد حديثهم أيضاً عن الحكم والنقض والشهادة ، والسياسة الشرعية ومقتضياتها ، ثم يحجرونك إلى الحديث عن تطبيق الأحكام على المسلمين وغيرهم ، ويفيضون الكلام عن العلاقات بين المسلمين أفراداً ودولة ، وغير المسلمين وهل الأصل في العلاقة بين المسلمين وغيرهم ، السلم أو الحرب ، وغير ذلك من مسائل العلاقات الدولية (مما يعرف اليوم بالقانون الدولي بقسمية) ، وإنك لو اجدت في هذه البحوث التيممة من الجدة والطرافة والانسجام مع مقتضيات السلم والحرب ، ما لا تجده في أبحاث المعاصرين من علماء السياسة والدستور .

وهكذا يستطيع كل راغب في البحث التعرف إلى بحوث علماء المسلمين السياسية والدستورية في غير كبير عسر ولا مشقة ، فسيجد آراء فقهاء الإسلام الدستوريين واضحة جلية ، إذا توجه إلى البحث عنها في كتب الفقه أو الأصول ، أو الكلام ، وكثيراً جداً ما تجد كل هذه الآراء ملخصة عند مظانها في كتب التفسير والحديث .

بعد هذا الذي قدمت ، قد يدهش التمارىء الكريم إذا قلت له : إن كثيراً من المستشرقين المغرضين يتمولون : إن الإسلام جاء خلواً من المبادئ السياسية والدستورية ، اللازمة لسعادة الناس وتنظيم حياتهم ، في كل أمة متمدنة ، بدليل أن علماء الإسلام لم يشتغلوا بالبحث السياسي وليست لهم فيه مؤلفات سياسية ؛ ويجارى هؤلاء بعض المستغربين من أبناء المسلمين ، وهذه المقالة تطوى أمرين : الأول : أن علماء المسلمين لم يشتغلوا بالبحث الدستوري والسياسي . والثاني أن الإسلام ليست له مبادئ سياسية ودستورية ، وسنفرد هذه الكلمة للأمر الأول .

لو لم يكن لدينا — نحن المسلمين — سوى بحوث المتكلمين والفقهاء في السياسة وهم شراح الإسلام ، لكان ذلك وحده كافياً في الجزم بظلم هذه المتألة الظالم أهلها ، ولكن لدينا بحوث سياسية ودستورية كاملة مستقلة عن بحوث المتكلمين والأصوليين والفقهاء ، لدينا مؤلفات سياسية لها قيمتها وخطورتها في توجيه

السياسة الداخلية للدولة ، والسياسة الدولية على وجه العموم ، وإلى التارىء قائمة بهذه المؤلفات .

١ — مقدمة العلامة ابن خلدون . التى كتبها بين يدى كتابه « العبر وديوان المبتدأ والخبر » فى التاريخ ، وهو باعتراف المنصفين من علماء الشرق والغرب أول باحث اجتماعى وضع أصول علم الاجتماع ، وأفاض فى بيان سياسة الإسلام العامة . وقد أشار فيها إلى أن علماء المسامين فى العصر العباسى قد عرفوا كتاب « السياسة » لأفلاطون وأرسطو ، ومن الباب أن حنين بن اسحاق قد ترجم السياسة لأفلاطون إلى العربية . ونقل من هذه الترجمة أحمد بن يوسف فصولا نشرها فى العصر الحديث رفيق بك العظم ، وسواء تأثر البحث السياسى لعلماء الإسلام ، أو لم يتأثر بهذه الترجمات ، فهذا دليل اشتغالهم بالبحث السياسى ، وقد تتابعت مؤلفاتهم فيه بعد ذلك ، فظهر كتاب « السياسة » لفسطاطن لوقا بالعربية ، وقد تأثر فيه بفلاسفة الإغريق ، وألف الصابى كتاباً سماه « المتوج فى العدل والسياسة » .

٢ — ألف الفيلسوف الكبير « الكندى » اثنى عشر كتاباً فى السياسة . منها : الرسالة الكبرى ، وسياسة العامة ، والكندى مغرور غير مجهول وآثاره معلومة للباحثين ، وإن كان بعضها قد ضاع .

٣ — ألف أحمد بن الطيب تلميذ الكندى كتابين « السياسة الكبير » و « السياسة الصغير » .

٤ — ألف فيلسوف الإسلام الفارابى فى علم السياسة ثمانية كتب ، منها : كتاب « السياسة المدنية » وموضوعه أشبه بما يعرف اليوم بالاقتصاد السياسى ، وكتاب « المدنية الفاضلة » وهو مطبوع مشهور ، وقد نشر الأب شيخو فى مجلة المشرق سنة ١٩١١ م رسالة أخرى فى السياسة للفارابى غير هذين الأثرين .

٥ — ألف ابن أبى الربيع كتاباً سماه « سياسة المالك فى تدبير الممالك »

٦ — ألف أبو بكر الطرطوشى كتاباً سماه « سراج الملوك » .

- ٧ — ألف أبو المكارم أسعد بن الخطير كتابه «قوانين الدواوين فى نظام حكومة مصر وقوانينها» وينقل عنه كثيراً صبح الأعشى .
- ٨ — ألف الإمام الماوردى الشافعى كتابه «الأحكام السلطانية» وهو مطبوع متداول .
- ٩ — ألف الإمام أبو يعلى الفراء الحنبلى كتاباً سماه أيضاً «الأحكام السلطانية» وقد أخرجه الشيخ حامد الفقى من أعوام .
- ١٠ — ألف الإمام بدر الدين بن جماعة كتابه «تحرير الأحكام فى تدبير أهل الإسلام» وقد نشرته سنة ١٩٣٤ مجلة ألمانية ثم نشرته مجلة انجليزية «Islamica» فى نفس السنة .
- ١١ — ثلاثة كتب بالفارسية هى كتاب «سياسة نامه» لنظام الدين ، وكتاب «حكمة الإشراق» للسهروردى ويظهر أنه قد تأثر فيه بأفلاطون وكتاب «أخلاق ناصرى» للطوسى .
- ١٢ — كتاب «الأخلاق الجلالية» لجلال الدين الدوانى .
- ١٣ — التاج فى أخلاق الملوك للجاحظ ، وقد نشرته من مدة دار الكتب الملكية المصرية .
- ١٤ — «السياسة الشرعية لإصلاح الراعى والرعية» اسم كتاب ألفه أستاذ النهضة الإسلامية الإمام المحدث الناقد ابن تيمية ، وهو من الذبوع والانتشار بحيث لا يمكن أن يجهل .
- ١٥ — «الطرق الحكمية فى السياسة الشرعية» للإمام مجدد الشريعة ابن قيم الجوزية . وهو كتاب خطير مطبوع معروف لأهل العلم فى كل مكان كسابقه تماماً .
- ١٦ — كتاب ألفه إمام الحرمين اسمه «غياث الأمم»
- ١٧ — وللصابى كتاب آخر غير المتوج اسمه «تحفة الأمراء» طبع فى بيروت سنة ١٩٠٤ .

١٨ - كتب الخراج التي ألفها أئمة أعلام ، وهي مطبوعة مشهورة عند العلماء ، وهي من أهم المراجع الدستورية الإسلامية . وهي :

كتاب الخراج للقاضي أبي يوسف يعقوب بن إبراهيم صاحب الإمام أبي حنيفة ، وكتاب الخراج ليحيى بن آدم ، وكتاب الخراج لقدامة بن جعفر .

١٩ - « كتاب الوزراء والكتاب » لأبي عبد الله محمد بن عبدوس الجهشيارى

٢٠ - « كتاب الولاة والقضاة » للسكندى وهي مشهور يرجع إليه العلماء دائماً

٢١ - « كتاب الاموال » ألفه أبو عبيد القاسم بن سلام .

٢٢ - « كتاب الفخرى فى الاحكام السلطانية » لابن الطقطقى محمد بن على

ابن طباطبا .

٢٣ - « مقالات الإسلاميين » للإمام أبى الحسن الأشعرى نشره ريتز

الألماني باسلامبول سنة ١٩٢٩ .

٢٤ - مراجع التاريخ الكبرى ، وهي تقص علينا عند المناسبات كثيراً

من آراء الأولين عند اختلافهم على أمر من أمور الحكم وسياسة الدنيا ، وما يستند إليه كل رأى من حجج تقوم على توخى المصلحة .

٢٥ - هناك مخطوطات كثيرة اغتصبها المستعمرون عندما انتهوا بلاد

المسلمين ، وهي مسجونة فى مكاتب برلين ، ولندن ، وباريس ، واسبانيا ، وليدن وفينا وغيرها ، وطالما تحدث عنها أمير البيان المرحوم شكيب أرسلان ، ولم يتح لنا الاطلاع عليها .

فاذا نحن أضفنا هذا التراث الثم الذى قدمنا ، وهو خاص بالبحوث السياسية ،

إلى ذلكم التراث السياسى الضخم فى كتب التوحيد ، والأصول والفقه فى جميع

المذاهب الإسلامية السنية والشيعة ، وجدنا أنفسنا ملزمين بالحكم على مقالة

هؤلاء المستشرقين وتلاميذهم المستغربين ، بأنها مقالة خاطئة ظالمة .

بقي أن يقول قائل : إن بعض هذه الكتب التي قدمتها ، كانت تعالج السياسة الواقعية لاسياسة الإسلام نفسه ، لأنها كتبت مثلاً للخلفاء والسلاطين ، بتصد تبرير أوضاع خاصة قائمة ! ونحن نقول : هذا . وإن كان حقاً فإن أبحاثهم كانت تعتمد على مقررات الإسلام العامة ، وإن يكن بعضهم قد تعسف مثلاً في تأويل بعض النصوص ، فإن هذا لا ينفي أن هذا الفريق قد اشتغل بالبحث السياسي ، والاشتغال بالبحث السياسي شيء ، وتقدير هذه البحوث - وبيان مدى عمقها ، ومبلغ قربها أو بعدها عن الإسلام ، ومقدار صلاحيتها للناس أو عدم صلاحيتها - شيء آخر سنجعله بإذن الله موضوع كلماتنا المقبلة ، والمهم الآن أن نعلن أن المسلمين القدامى ، لهم بحوث ومؤلفات كثيرة في علم السياسة .

ولا يفوتني في ختام هذه الكلمة أن أشير إلى عظم المبادئ السياسية التي عرض لها الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده وتلميذه السيد رشيد رضا أثناء تفسيرهما للقرآن الكريم ، كما أن السيد رشيد له كتاب عن « الخلافة » يعتبر ثمرة طيبة لغرس الإمام عبده ، ولا يقلل من قيمته تعسف السيد رشيد في توجيه بعض النصوص ضد شرعية الخلافة العثمانية ، كما أن لأستاذنا الشيخ محمود شلتوت رسائل كثيرة لو جمعت كونت كتاباً قيماً عن « السياسة في الإسلام » ، أذكر من هذه الرسائل القيمة : ١ - أسس الدولة في نظر الإسلام ٢ - الإسلام والسلام ٣ - المعاهدات في الإسلام ٤ - تنظيم العلاقات الدولية في الإسلام ٥ - القرآن والقتال ، وله غير هذه الرسائل بحث دستوري ممتع عنوانه « المسؤولية المدنية والجنائية في الشريعة الإسلامية » ، وما لا شك فيه أن هؤلاء العلماء الأعلام قد اعتمدوا على سلفهم الصالح وما أتجه السلف في البحث السياسي ، فهذه سلسلة متصلة الحلقات ، والله نسأل أن يوفقنا إلى متابعة الكلام عن مبادئ الإسلام السياسية ، والله يهدي لنوره من يشاء ، وعليه قصد السيل .

« يتبع »

إلى أي طريق نحن مسوقون

أفضيلة الأستاذ الشيخ محمود محمد المدني

المدرس بالأزهر

لقد اضطرب نظام الخلق فعمت الفوضى وشكا الجميع من تحلل خلق أصاب الأمة ، وانهارت نفس أدركها حتى فسدت معايير الرجال ، وأصبح الوعظ ثقيلًا على النفوس لجوحها ، ومرد ذلك كله ذلك التيار الماسي الذي ملك زمام الأمة كلها ، وصار الفرد يعمل على أن يكون مالياً ، ولو ضحى في سبيل ذلك بكل خلق كريم ، ونفس أبية ، ونسى الجميع أن الدين الإسلامي لم يقتصر تعاليمه على الروحانيات البحتة ، بل دعا إلى كل ما يعود على الفرد والمجتمع بالخير والسعادة ، والعزة والكرامة ، في الدين والدنيا في قوله تعالى : « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا » . ولقد كان سيدنا عثمان وعبد الرحمن بن عوف من خيرة الصحابة ومن المبشرين بالجنة فضلا عن أنهم كانوا من ثروة الأمة الإسلامية ، بل لقد بلغت ثروة عبد الرحمن بن عوف قرابة الأربعة ملايين ديناراً ومع ذلك حين رغب إليه مولانا وسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أن ينزل عن كل ماله للمسلمين لم يتوان عن التنفيذ حتى أرجعه المصطفى .

ونظرة واحدة إلى ما نحن عليه الآن تعطينا صورة صادقة على فساد تفكيرنا ، وعدم تفهمنا لحقيقة الدين ، وما يرمى إليه من مكارم لو اتبعناها لسدنا الأم غنى وخلقاً ، وجاهاً وسياسة .

ولكننا شغلنا عن ذلك بالتقليد ، وباليته تقليد يعود على الأمة بالنفع والخير ،

بل تقليد مؤذ للخلق . مذهب للكرامة مضيع للعزة ، ونظرة واحدة إلى عواقب حادث الجامعة تكفى لأن نقرر أننا نسبح في عماية من تقليد مغبته وخيمه وعواقبه مشينة .

فالدين الإسلامى يأمر النساء بعدم التبذل والخروج إلى الطرقات ، بل تلك الملابس التى تكشف عن كل المفاتن الجسمية فى وسط شباب قد ملأ الغرور نفسه ، أنه وصل إلى حد عدم المؤاخذه على تصرفاته ، لأن الحرية المزعومة تكفل عدم توجيه أى نقد أو لوم عليه .

فما بال قائمين على شئون الجامعة ، وقد لمسوا بأنفسهم ورأوا بأعينهم ، أن شبابنا لم يعن بالخلق قدر عنايته بالمظهر الخارجى ، ولم يفكر فى الروح الجامعية قدر تفكيره بالعبث الصياني فى داخل الجامعة وخارجها ، يفكرون فى استحضار فرقة رافصات البالية ، لتحية علماء الغرب ، ومفسكريه ليروا منظراً رغم إنكاره يذيب النفس خجلاً . ويملاً القلب حسرة ولوعة ، ولو فكر هؤلاء فى تعاليم الإسلام الصحيحة ، ونفذوا تعاليمه على الوجه الأكمل لرفع من شأن الأمة ، وأعلى من قدرها ، ولعلم الغربيون علماء وغيرهم أن حضارة الإسلام هى الحضارة الحقبة التى يجب على العالم إذا أراد أن يستقر السلام فى ربوعه ، وأن ينتشر الأمن والاستقرار ، وأن تزول حالة التوتر التى عليها الأمم الآن ، وخوفهم من الحرب والاستعداد له ، وأن تعاليمه هى التعاليم الصحيحة . فإلى المسئولين أتوجه بقلب مخلص أن يعمل كل من ناحيته على أن يبرز محاسن الإسلام لنفسه وأهله وعشيرته ، وبين أفراد أسرته ، وأن يعتنقها عن يقين حتى يعود للأمة مجدها وعزها ، فلا عز لغير الإسلام ، ولا نصرة حقيقية لغير المسلمين ، فالعزة لله ولرسوله وللمؤمنين ، وكفانا جموحاً وإسفافاً ، فالحالة تتطلب علاجاً حاسماً وسريعاً ، ولا علاج بغير تعاليم الإسلام ، وإن الله القوى القاهر ، ينصر من انتصر لدينه ، ويعزه بإعزازه .

دراسات في التصوف

فلسفة التصوف

للمضرة الاستاذ عمر طلعت زهران

استاذ في الأدب

[الزاهدين المتصوفة والفلاسفة ، الكرامات
وتفسيرها الفلسفي ، العلم بين المتصوفة والفلاسفة ،
المعرفة — الله]

صلة التصوف بالفلسفة ، إنما تروى قصة من أروع القصص ، وتبين عن نضال
من أعنف ما عرف العقل البشري . فالصوفية — كما نعرف — إنما يتبعون منهاجا
خاصا فريدا ، هو منهاج الروح والإلهام ، إن أتاهم العلم فإنما يأتيهم عن طريق الله ،
والله وحده . ليسوا بمستدلين عن طريق العقل ، أو آخذين عن الكتب ، إنما
العلم في صدورهم ، جاءهم بنور من الله ، أفاضه عليهم من كرمه . وأشرق به على
قلوبهم من فيضه . أما الفلسفة فأداتها العقل ، والعقل وحده ، به يعرفون كل أمر ،
وبه يحيطون بكل شيء ، يدلمهم — فيما يرون — على وجود أنفسهم ، وعلى وجود الله ،
وعلى وجود العالم .

وأروع صورة لهذا النضال — بين العقل والذوق — نجدها عند الغزالي ، ذلك
الذي أحاط بعلم الفلاسفة ، ونهج سبيلهم حينما من الدهر ، حتى إذا ما عرف ذلك
الذي يدعون ، قلب لهم ظهر المجن ، ولبت بناجزهم ، وينتمض أدلتهم ، ويثبت :

ضعف العتمل ، وقوة الروح . فإذا به في « إحياء علوم الدين » يوقفنا على أروع صراع بين العقل والذوق .

وسنعرض في هذه الكلمة لأهم المسائل التي احتدم فيها القول بين الفريقين ، فتكلم عن الزهد لديهما ، ثم الكرامات وتفسيرها لدى الفريقين ، ثم تناول نظرية المعرفة عندهما ، وأخيرا نتكلم عن « الله » جل جلاله ، كما يراه الصوفي ، وكما يراه الفيلسوف .

أما الزهد ، فتمد أخذ الصوفية أنفسهم به ، وراضوها عليه . وهم إنما فعلوا ذلك حتى تخلص أرواحهم من شوائب المادة ، وأدران البدن : اتخذ الصوفية الزهد وسيلة للوصول لجناب الحق ، وطريقا لكشف الحجب عن أنفسهم ، حتى يجتولوا بطلعة الله ، ويصلوا الى حضرة الربوبية ، أما الفلاسفة فنراهم في هذا فريقين : إما آخذين بالزهد كمبدأ وغاية ، لا كوسيلة أو طريق ، وإما تاركين الزهد ، عازفين عنه ، آخذين باللذة المادية الغزيراثمة ، مبالغين فيها مسرفين . وقد نجد بينهم فريقا ثالثا وسطا بين الإثنين فما راض نفسه على الزهد . ولا أخذها بالإسراف في اللذة . وإنما اعتدل بين هذا وذاك ، وسار على طريق مستقيم ، لا إفراط فيه ولا تفريط . ومن هنا نعرف الفرق بين الصوفية والفلاسفة : فبينما الأولون يرون في الزهد وسيلة وطريقا ، إذا بالفلاسفة يرون فيه غاية ومقصدا . ولعلنا نرى في الابيقورية والرواقية خير مثلين على ما ذهبنا إليه .

ولما كان السبيل إلى الله هو رياضة ومجاهدة . يصل بعدها السالك هذا الطريق ، إلى منزلة العرفان ، وهو مقام سام ، بل وقد يصل فيه السالك إلى أن يتحد بالله أو أن يحل فيه الله — حسبما تقول بعض المذاهب الصوفية ، وفيه تسامح كبير ، فإن كان ذلك كذلك ، رأينا له كرامات : كأن يظهر في أماكن متعددة في وقت واحد ، أو أن يأتي بفاكهة في غير أوانها ، أو أن يطعن نفسه بمعدة ،

أو أن يقبض على الحديد المحمى دون أن يصيبه مكروه ، وبالمجمل أن يأتي بخوارق الأمور مما هو فوق طاقة البشر . وبما لا قدرة للرجل العادى على فعل مثله .

يوضح الصوفية ذلك بقولهم إن الروح فى حال « السكر والغيبة » تصعد فتفارق الجسم وتتحد بالله : أو إن الله نفسه يحل بالبدن ، فإن فعل العبد شيئاً ، لم يكن هو الذى فعل ، وإنما الله هو الفاعل ، وفى كلتا الحالتين يستطيع الإنسان أن يقوم بالخوارق ، وأن يأتي بالكرامات .

أما الفلاسفة فيفسرون ذلك تفسيراً آخر : فالمعجزات عندهم تثبت فى ثلاثة أمور : أولها القوة المتخيلة ، فإنهم زعموا أنها إذا استولت وقويت ، ولم يستغرقها الحس والاشتغال ، اطلعت على اللوح المحفوظ وانطبعت فيها صور الكائنات الكائنة فى المستقبل ، وذلك فى اليقظة للأنبياء ، ولسائر الناس فى النوم .

وثانيها هى القوة العقلية النظرية ، ترجع إلى قوة الحدس ، وهو سرعة الانتقال من معلوم إلى معلوم ، والناس فى هذا منقسمون : فمنهم من يتنبه لنفسه أو بأذى تنبيهه ، ومنهم من يتنبه مع التعب الكثير ، ورب نفس مقدسة صافية ، يستمر حدسها فى جميع المعتمولات وفى أسرع الأوقات ، والمثال على ذلك الأنبياء .

ثالثها القوة النفسية العملية ، وقد تنزهت إلى حد تتأثر بها الطبيعيات وتنسخر ، ومثله أن النفس إذا توهمت شيئاً خدمته الأعضاء والقوى التى فيها ، فحركات إلى الجهة المتخيلة المطلوبة . ويختلف ذلك باختلاف صفاء النفوس وقوتها ، فلا يبعد أن تبلغ قوة النفس إلى حد تخدمه القوة الطبيعية فى غير بدنه ، فإذا جاز أن تطيعه أجزاء بدنه ، فلا يبعد أن تبلغ قوة النفس إلى حد تخدمه القوة الطبيعية فى غير بدنه ، فإذا جاز أن تطيعه أجزاء بدنه لم يمتنع أن يطيعه غيره ، فتطلع نفسه إلى هبوب الريح أو نزول المطر أو هبوب عاصفة ، أو نزول صاعقة أو تزلزل الأرض لتخسف بقوم .

من هذا نرى مبلغ الفرق بين تفسير الفلاسفة للكرامات والمعجزات ، وبين تفسير المتصوفة لها ، الذين يرجعون الكرامة إلى الاتحاد بالله ، فإذا استولت لاهوته على الناسوت ، أصبح هذا قادراً على فعل أى شيء .

والعلم لدى الصوفية — كما أبنا — إما استبصار وطريقه العقل والكتب والتعلم وإما إلهام وله طريقتان : الإشراق وباعثه الله ، وأهله هم أصحاب النفوس الصافية والقلوب العامرة بالإيمان وحب الله ، والوحي عن طريق الملك من لدن الله ، وأصحابه هم الأنبياء . أما لدى الفلاسفة فالأمر جد مختلف ، فسيل العلم هو العمل ، والعقل وحده ، هو الذى يدلنا على النفس وعلى الله ، وهو الذى يمدنا إلى الحقيقة فى كل شيء . وينظر الصوفية إلى هذا العلم — العلم عن طريق العمل — على أنه أدنى درجة من علمهم ، وأنه قريب من علم العوام .

ولكن الصوفية والفلاسفة يختلفون فى فهمهم لـ « العمل » وفيما يعنون بهذا اللفظ . فهو عند الفلاسفة ما نعرف من أنه أداة للاستدلال وللنظر والفهم والمعرفة بينما هو عند الصوفية . النفس الناطقة ، أو هو عمل المعقولات . فالعلم لدى الصوفية إذن هو كما يقول عليه السلام : « نور يقذفه الله تعالى فى القلب فيشرح به الصدر ، أما علامته فهي » التجافى عن دار الغرور ، والإجابة إلى دار الخلود » .

والنفس ، إما نفس مطمئنة ، إذا سكنت للأمر ، وحفظت التوازن بين شهوات الجسم ؛ وإما نفس لوامة ، إذا لم يتحقق سكونها فاضطربت مع شهوات البدن ؛ وإما النفس الأمارة بالسوء إذا استسلمت للشهوات ، واسلست لها التباد ، وأفسحت المجال للشيطان . وما أشبه « الغزالي » فى تقسيمه هذا بـ « أفلاطون » ، الذى يقسم النفس إلى عاقلة وغضبية وشهوية . فالأولى تقابل النفس المطمئنة ، والثانية تقابل اللوامة ، والثالثة تقابل الأمارة بالسوء ، وذلك على الرغم من اختلاف أساس التقسيم عندهما .

وأهم من هذا وذاك هو الله ، وفرق شاسع بين معرفة الله عند الصوفية ، ومعرفته عند الفلاسفة . سئل « ذو النون المصري » : كيف عرفت ربك ؟ فأجاب : « عرفت ربي بربي ، ولولا ربي ما عرفت ربي » ، فطريق معرفة الله هو الله نفسه . وسئل « النوري » : ما الدليل على الله ؟ فأجاب : « هو الله » ، قيل له : وما العقل ؟ قال : « العقل عاجز ، والعاجز لا يدل إلا على عاجز مثله » فلا العقل يؤدي بنا إلى الله ومعرفته ، ولا الاستدلال العلي بكاف لكي نعرف الله . ولكن « الله » ، إن كان ثمت طريق لمعرفته ، فهو عن طريقه « هو » . الله يشرق بنوره على قلب عبده ، ويحتلي بذاته ، ويظهر بجلاله . لا شك إذن في تلك المعرفة عن الله ، التي تأتينا عن طريق الله نفسه . أما أن نعرف الله عن طريق العقل فذلك أمر كله شك وكله ريب ، وما أدل على ذلك من أنه إذا اصطنع فيلسوف براهين على وجود الله ، إذا بفيلسوف آخر يهدم له براهينه ، ويقول بأخرى ^(١) ، إذن فهذه وتلك محل شك ، وما دام فيها ظل من الشك ، فهي غير يقينية ، أي أنها لا تؤدي إلى يقين ، وهذا « الله » الذي لا يقين فيه ، ليس إلهاً ، ولسنا إذن نعرفه كما ينبغي أن نعرف الله .

فنحن إذا عرفنا النفس ، ثم أثبتنا عن طريق النفس معرفة الله ، ونحن إن دأبنا على الله بمختلف الأدلة : سواء في أنفسنا أو في غيرها ، فإن هذه المعرفة لا تبلغ أبداً يقين المعرفة التي يتمد الله بها في قلوب عباده المصطفين . ويدلنا الأثر النازل : « من عرف نفسه ، فقد عرف ربه » يدلنا على أننا لا نعرف الله إلا إذا عرفنا أنفسنا ، ولن نعرف أنفسنا إلا إذا تجردت عما يشوبها من مادة ، وما يتعلق بها من أوشاب .

وبعبارة أخرى ، لن نعرف الله ، إلا من عرف نفسه ، ومن سلك طريق المعرفة الصحيح ، طريق الذوق والوجد .



(١) يلاحظ أن الفلاسفة رغم اختلافهم يتفقون جميعاً على براهين معينة ، ومن هنا كان في هذا الدليل مغالطة منطقية .

أسباب الفتنة في عهد عثمان

لمحاضرة الأستاذ عبد المنعم السبع

مدرس أول الآداب بالمعاهد الدينية

للفتنة في عهد عثمان أسبابها المباشرة وغير المباشرة ، وهي من هذه الوجهة أشبه الثورة الفرنسية . كما تتشابهان كذلك في أن حدوث كل منهما في صفحة التاريخ كان أمراً لا مفر منه ، وهذا لأنهما يرجعان لعوامل غير مباشرة ، لم تكن من خلق الزمن الذي حدثنا فيه . غير أننا نستطيع أن نقرر أنه كان من الممكن أن تحدثا في تاريخ آخر لاحق ، لو لم توجد العوامل المباشرة التي أدت بهما إلى الحدوث زمن عثمان رضي الله عنه وزمن لويس السادس عشر .

ويمكن حصر الأسباب غير المباشرة لهذه الفتنة في التطور الاجتماعي الجديد الذي طرأ على حياة المجتمع الإسلامي نتيجة الفتوحات الواسعة التي تمت زمنى أبي بكر وعمر ، كما يدخل في ذلك أيضاً ، العصبية التي تميز بها العربي ، وتلك الروح العربية الثورية الجاححة أو ما يطلق عليه علماء الاجتماع اسم « روح الجنس » .

هذا عن الأسباب غير المباشرة للفتنة ، أما أسبابها المباشرة فيمكن ربطها بضعف سياسة الخليفة . وسنعرض في شيء من البسط والتحليل لـكلا النوعين من أسباب هذه الفتنة الشنيعة . التي ذهب ضحيتها خليفة المسلمين الثالث عثمان رضي الله عنه .

يقول علماء الاجتماع إن الثورة دائماً خليفة التطور ، سواء أكان هذا التطور دينياً ، أم فكرياً ، أم مادياً ، أم سياسياً . ثورة تطيح بالقديم النائم من نظم الحكم أو الديانة المرعية أو الأفكار والمعتقدات السائدة أو نظم التجارة المتبعة أو أصول الفن المعروفة ، ثورة تطيح بكل ذلك ، وتفسح المجال لنظم جديدة ومعتقدات جديدة وقيم جديدة . فكلنا يعرف مدى فزع دولة الأوثان عند ما انبثق نور

الهداية الاسلامية يكتسح ظلمة شبه الجزيرة العربية ، فخلت دولة الباطل بمويقاتها وعلا صرح الحق كالطود لا يريم ، وكلنا يعرف كذلك مدى ما أزكت به آراء « فولثير ، و « جان جاك روسو ، و « منتسكيو ، نيران الثورة الفرنسية ، التي راحت تلتهم القديم الجائر ، وتمهد لحياة أخرى أكرم ببنى الإنسان . وما فزع أباطرة روما ، ذات التاريخ الوثني العتيق ، يوم طرقت المسيحية أسوارها ، وجنوحهم إلى « بيزنطة » ، إلا دلائل على هذا التطور الجديد .

ونحن لا يخفى علينا ، أن المجتمع الإسلامى ، أواخر عهد عمر ، كان قد تهيأ لاستقبال طور جديد ، من أطوار حياته ، وأنه بما تم له من الانتصار المؤزر على أكاسرة الفرس وقياصرة الروم ، وبما غمره من الغنائم والأموال والسبي ، وقد بدأ يودع طور البداوة وعيشها الناضب ، ويستقبل حياة التحضر ، وعيشها الخصب ، غير أن العبقريّة العمرية ، لم تفتحها هذه الظاهرة الجديدة فى حياة المسلمين ومدى ما قد تحدثه من نكسات لو أرخى لها العنان ، فراح يضرب للناس من سيرته العادلة الزاهدة المقتصدة أروع الأمثال ، فبرهم بذلك ، وحملهم على الطريق السوى ، كما دفعهم إلى الاقتداء والتشبه بسيرته .

وأهم مظاهر التطور الاجتماعى لذلك العهد ، تضخم الثروات ، بما آل إلى المسلمين ، من خيرات الأمم المغلوبة . ولقد تعددت المصادر الشئ الكثير من هذا الثراء العريض الذى استجد على الصحابة والمسلمين . ومن هذه المصادر ، تاريخ الطبرى ، وطبقات ابن سعد ، ومروج الذهب للسعودى ، وتاريخ ابن عساكر ، والكامل لابن الأثير . ومن هؤلاء الذين أفاضت المصادر فى عد ثروتهم ، سعد بن أبى وقاص ، وعبد الرحمن بن عوف ، أحد الثمانية الذين سبقوا الخلق إلى الإسلام ، وطلحة بن عبيد الله ، أحد العشرة المبشرين بالجنة ، وكان يقال له ، طلحة الفياض ، وطلحة الجود ، وطلحة الخير ، وطلحة الطلمحات ، ومن الأغنياء الذين ورد ذكرهم أيضاً ، خباب بن الارت ، والزبير بن العوام ، والمقداد بن الأسود وغيرهم . والشئ الذى يسترعى الانتباه ، أنه قد وجدت طبقة جديدة أصابت من الثراء ما تشرد عند وصفه الألباب ، وقد جر هذا طبعاً ، إلى حياة البذخ والترف فى عهد عثمان ، الذى ترك إمرئش وسواهم الحبل على الغارب . يتأثلون التمرى والضياح ، ويشيدون الدور والأبنية الفخمة ، وبذا بدا التطور

واخذوا جلياً ، حيث طرحت حياة البداوة الساذجة جانباً ، ومال الناس إلى التكاثر بالأموال ، وبجانب هؤلاء ، وجدت طائفة أخرى ، خاب مسعاها في الحياة ، فنظروا إلى طبقة الأغنياء ، نظرة حقد وحسد ، ودب في نفوسهم ديب اليأس والتمرد ، ومثل هؤلاء ، هم الذين يهدون للثورات ، وينفخون في أبواقها . ولقد أدرك عمر ذلك قبل موته ، وقال مشفقاً على المسلمين ، لما رأى أسلاب فارس وما فيها من ياقوت وزبرجد وجوهر ، « بالله ما أعطى الله هذا قوماً إلا تحاسدوا وتباغضوا — إلا ألقى الله بأسهم بينهم » . ولقد كان عهد عثمان ، كما سلف ، دور انتقال من حياة العداوة الجافة إلى حياة التحضر المترفة ، فكثر لديه الأموال كثيرة هائلة ، اتخذ لها الخزائن ، فانتشر القيل والقال ، وأصبح الأغنياء ، بل والخليفة نفسه ، محل طعن ومؤاخذه ، لما كان يخص به أقاربه من جاه ومال ، فدبت في البلاد روح السخط والتذمر ، وحب الشغب ، وكراهية قریش . ولعل ذلك مصداق قوله صلى الله عليه وسلم « إن أخوف ما أخاف عليكم من بعدى ما يفتح الله عليكم من زهرة الدنيا وزينتها » ، ولقد صدق قول رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان ذلك من الأسباب الممهدة للفتنة « ونبلوكم بالخير والشر فتنة والينا ترجعون » .

وليس من شك في أن اندلاع لهيب الفتنة في عهد عثمان ، مرده إلى مجارة الخليفة نفسه للتطور الاجتماعي ، وهو ما لم يفعله عمر ، فقد أصبح لعثمان من الثروة ما لم يكن لأحد من سلفيه ، وإلى جانب ذلك ، مد الخليفة للصحابة والتابعين والأقربين في هذا المضمار مداً ، وتلك حالة جديدة لم يشهدها عهد السلفين الكبارين أبي بكر وعمر ، فخر ذلك في نفوس الناس ، ووجدوا من ضعف الخليفة ولينه ، ما شجعهم على التيام بفتنتهم المشؤمة .

وإلى جانب تضخم الثروات كظهر من مظاهر التطور الاجتماعي في ذلك الحين برز مظهر آخر من مظاهر هذا التطور ، وهو اختلاط الأجناس والعناصر المختلفة فقد أصبح المجتمع الإسلامي ، بعد حوادث الفتوح ، محيطاً زاحر العباب ، يمج بكثير من مختلف الأجناس والأديان . وكان منهم الموتورون بسيوف المسلمين ، دخلوا الإسلام غير مخلصين ، يتحينون الفرص للإضرار بالمسلمين ، ومن هؤلاء « الهرمزان » و « جفينة » و « كعب الأحبار » و « عبد الله سبأ اليهودي » ، عماد

الفتنة الأكبر ، وداعيتها الأول . وفوق ذلك كان للسبي والاسترقاق والخلط بين العناصر ، أثر بعيد الفور ، في إعداد المجتمع الإسلامي . لهذه الفتنة ، وقد كان أبناء السبايا من شر ما منى به المجتمع العربي . وقد قال عثمان رضى الله عنه : « إن أمر هذه الأمة صائر الى الابتداع بعد ثلاث فيكم ، تكامل النعم ، وبلوغ أولادكم من السبايا ، وقراءة الأعراب والأعاجم للقرآن » .

وهناك مظهر ثالث من مظاهر التطور الاجتماعى ، وهو الثقافة العامة لهذا العهد ، فقد كانت الثقافة زمن النبي الكريم ، ثقافة بسيطة موحدة ، إذ كانوا يتفنون عند ما جاء به الله ، وما علمهم رسوله الأمين ، لا تكلف ولا ابتداع ولا أمت ولا عوج ، وكانوا لا يعرفون التأويل بما يوافق أهواءهم ، ولا اللعب بالنصوص لحساب منافعهم ، فلما كانت الفتوح وكثر اختلاط العرب بغيرهم من الشعوب الأخرى ، راح أهل الأقطار المختلفة يقرأون القرآن . كل بالطريقة التى يراها ، وبالنعمة التى تعنيه ، ففزع لذلك « حذيفة بن اليمان » ووجد المصحف . وبالإضافة الى ذلك ، راح القوم ، وقد استنارت عقولهم فى المجتمعات والأندية والمؤتمرات ، ينظرون الى سياسية الخليفة ، نظرة الناقد ، ويتطلعون الى أعماله تطلع المدقق المحاسب وأحياناً كانوا ينظرون الى هذه السياسة نظرة السخرية والإزدراء . ومن ثم كان هذا المظهر الثقافى الجديد ذا أثر فى التمهيد للفتنة .

ومن الأسباب غير المباشرة لهذه الفتنة الشنعاء . ما تميز به العربى من روح التعصب ، فلما جاء الإسلام ، حارب هذه النزعة « لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى » « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » وبذا اختفت هذه النزعة زمن النبي ، ثم برزت أيام الردة ، ثم اختفت بفضل أبى بكر ، إذ شغل المسلمين بأمر الفتوح . وكان عمر يسعى جهده للتقضاء على هذه النزعة ، وكانت قريش محل حسد وحنق القبائل العربية الأخرى ، لما لها من المسكانة والصدارة ، ثم كان هناك التعصب أيضاً بين بيوت قريش وبطونها ، وأمر ذلك واضح فى الخلاف الذى شجر بينهم عندبيعة عثمان ، وقد كان لروح التعصب هذه ، أثرها البعيد المدى فى تعسكير الجو حول الخليفة ، وفى إشعال نيران الفتنة .

ومن الأسباب غير المباشرة لهذه الفتنة أيضاً ، الطبيعة العربية ، أو ما يطلق

عليه علماء الاجتماع «روح الجنس» ، وقد تميزت الروح العربية بالجوهر والعناد ، ولقد قال عمر في أول خطبة له بعد توليه الخلافة «إنما العرب مثل جبل أنف ، اتبع قائده ، فلينظر قائده أين يقوده ، أما أنا ، فارب الكعبة لأحملكم على الطريق» ، ولقد استطاع عمر أن يحملهم على الطريق حقاً ، فلما آل الأمر لعثمان ، ولم تكن له عبقرية عمر ولا حزمه ، انفلتت من يده ، مقادة هذه الأمة الجوارح الأنوف ، وانفجر بركان الفتنة ليودي بالخليفة الطيب الورع عثمان .

بقى من أمر هذه الفتنة أن نورد أسبابها المباشرة ، وتتلخص فيما أجمع عليه المؤرخون ، من ضعف سياسة الخليفة . ولو وضعت الخلافة آئذ في يد قوية ، كيد علي بن أبي طالب ، لكان من المرجح أن تتأخر هذه الفتنة إلى وقت لاحق ، وقد كان عثمان أقل من أن يقود أمر أمة كالأمة العربية ، وخاصة في هذا الطور الذي بلغت فيه درجة الغليان . وأول مظاهر هذا الضعف ، حيائه ولينه ، وليس أدل على ذلك من رفضه تفتيش «كميل بن زياد» ، وخضوعه للفتونين الثائرين من أهل الكوفة والبصرة ، والسير وفق أهوائهم الجاحجة ، فكلموا طلبوا منه عزل عامل وتولية آخر ، إستجاب لهم ، راجياً بذلك ، أن تسلس مقادتهم له ، ولكنه بتلك السياسة ، هون من شأن ولاته ، وأطعم أولئك الطغام الحاقدين فيهم .

ثم كان كبر سن الخليفة ، من العوامل المهيئة لهذه الفتنة ، إذ من طبائع النفس البشرية ، هبة التوى ، والطمع في الضعيف ، وعلى قدر ما كانت قوة عمر ونشاطه وتوثبه ، كان ضعف عثمان وانكساره وعجزه وتردده ، فسهل على بطائنه قطع الأمور دونه ، والعمل وفق مآربهم ، وبذلك تهيأت الأفطار الأخرى للنورة ورفع راية العصيان . روى الطبري أنه لما حوضر عثمان قال : «ومن كانت لى عليه طاعة فليمسك داره ، فإنما يريدنى القوم ، وسيندمون على قتلى ، والله لو تركونى ، لظننت أنى لا أحب الحياة ، ولقد تغيرت حالى ، وسقطت أسنانى ، ورق عظمى » ، ومن ذلك يتضح مدى فعل السنون بالخليفة عثمان ، حتى صيرته شيخاً فانياً عاجزاً ليس له من رهبة عمر شيئاً .

ومن تمط الضعف فى سياسة عثمان : إثاره الأقارب ، فى مجتمع عنيد أنوف ، يروج بالفتنة ، ويتطايّر منه شرر الحقد والحسد ، فكّم من لوم ، وكّم من عتاب ،

وكم من شكوى وجهت إلى عثمان وعمله ، وكان قد اصطفاهم من ذوى قرباه . والمؤرخون ينقسمون تجاه هذه السياسة قسمين : قسم يحذ ما ذهب إليه الخليفة من اصطفاء الأقارب ، بحجة أنهم كانوا أكفاء ، برهنوا على أنهم أهل للنقبة التى وضعت فيهم ، ومن هؤلاء : معاوية بن أبى سفيان ، ونضيف فى هذا الصدد أن روح التمرد ، التى طبعت هذا العهد ، أخافت الخليفة ، فلم يعد يثق بغير أقاربه ، وقسم آخر ، يخطئ الخليفة فى هذه السياسة ، ويقول بأنه كان الأجدر به أن يضرب الندوة من نفسه ، وأن يحذوا حذو عمر فيما اتخذه من سياسة تجاه أقاربه .

ومما تقدم ترى أن سياسة عثمان هذه ، وقد مهدت لإشعال نيران الفتنة ، وقد كان عثمان فى حاجة إلى مثل عبقرية عمر ، إذ كان حاكما ماليا ؛ بأدق معانى هذه الكلمة ، فما كان يمنعه أن يربت على كتف بدافع العطف من أن يتناولها بالدرة بدافع العدل ، قبل أن يتمرر صاحبها من مجلسه ، أما عثمان فتد كان ينبوع رحمة ، ونسيم رقة ، له صفات من يعطى ولا يأخذ ، بسط للناس صدر خلافته ، حتى استطابوا المرعى ، فإسأهم بزجرهم حزنوا وتمردوا ، ولم يستطع للفتنة قعما ، فأكلته نيرانها .

ويجب أن نمرر فى ختام هذا البحث ، أن نظام الحكم ، ذلك النظام الذى لم يحدد سلطة الخليفة ، وموقفه من الأمة ، وموقف الأمة منه ، ولم ينص على طريق محددة للحكم ، كان من العوامل التى أفسحت مجال الفتنة ، فإن روح الشورى ، التى تشبع بها المسلمون زمن عمر وأبى بكر ، جعلتهم يتطلعون إلى التدخل فى كل شئ ، وكان مظهر الخلافة مظهر رعاية أبوية بعيدة عن العنف والقهر ، غير أن هذا التسامح قد جر الفوضى ، والافتيات على الحقوق ، والاختلاف على ما كان يقع من الأحداث ويجد من الوقائع ، فلم يكن القول لهيئة خاصة ، ولا لطائفة معينة ، وقد كان عمر يرمى من وراء ذلك إلى تدريب كل مسلم على معرفة نصيبه من الواجب العام والمصلحة المشتركة ، غير أن ذلك انقلب فى عهد عثمان إلى جرأة وتطاول عليه ، مما مهد الأمور للفتنة .

هذه هى الأسباب المباشرة وغير المباشرة التى انتهت بالفتنة الشنعاء حيث كان ضحيتها خليفة المسلمين الثالث « عثمان رضى الله عنه » .

إمام المفسرين ابن جرير الطبري

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمود النواوي

المفتش بالأزهر

لعل في تردد النظر في تاريخ هذا الإمام العظيم وأمثاله . ما يحفز نفوسا كريمة أو يرفع هما وخيمة . وإنما الناس من جهة التمثال أ كفاء . ولا فضل للإنسان إلا بحياة يعمرها بعلوم يحصلها . أو آثار نافعة يخلدها فيخلد بها ، لهذا يعجبني دائما أن أطلع الثراء الكرام ، بسير هؤلاء الأئمة الأعلام .

نشأ الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري صاحب التفسير المشهور والتاريخ المعروف ، في التمرن الثالث الهجري ، وهو عهد نهضة علمية ، وبخاصة في التأليف والتدوين وهي نهضة ترجع إلى عهد المنصور العباسي وتبتدىء به . وكان المنصور العباسي قد شجع العلماء ، وأغرى بالتأليف الأئمة والفقهاء وأمره في موطن الإمام مالك وغيره مشهور بين الناس ، وناهيك بعصر المأمون الذهبي للغة العربية وآدابها ومعارف الدين والدنيا .

ولد الطبري سنة ٢٣٥ هـ وتوفي سنة ٣١٠ هـ ، فهي خمس وثمانون سنة تقريبا قضاه في جمع العلم والتصرف فيه . وقد عبت سبله . وعذبت مناهله . مع ذكاء نادر وحفظ عجيب . وتفرغ وزهادة . وتوفر على العبادة . فطوف بالآفاق يرتاد المعارف ما بين الرى . وبغداد . ومصر ، والشام ، والبصرة ، والكوفة .

وقد طال مقامه ببغداد بدءا وعودا . حتى كانت وفاته بها .

وكانت بغداد كعبة القصاد ، وموئل الرواد ، ونجمة العالم والأديب وجمع كل حسن وطيب - وهي التي يقول فيها ابن هانيء :

دخلنا كارهين لها فلما ألفناها خرجنا مكرهين

بدأ يطلب الحديث بالرى وما جاورها ، فأكثر عن الشيوخ ولا سيما محمد بن حميد الرازى والمنثى بن ابراهيم الأبل . وغيرهما . وحدث عن نفسه فى قصة يذكرها بعض المتصلين به . أنه دخل عليه هو وابنه فقال له فى حديث جرى . كم لهذا سنة ؟ قال تسع سنين . قال لم لم تسمعه منى ، قال كرهت صغره وقلة أدبه فقال لى : حفظت القرآن ولى سبع سنين ، وصليت بالناس وأنا ابن ثمانى سنين (١) وكتبت الحديث ، وأنا ابن تسع سنين ، ورأى لى أبى فى النوم أنى بين يدى النبى صلى الله عليه وسلم ، وكان معى مخللة مملوءة حجارة ، وأنا أرمى بين يديه . فقال له المعبر إنه إن كبر نصح فى دينه . وذب عن شريعته . فحرص أبى على معونتى على طلب العلم وأنا حينئذ صبي صغير .

وانتقل من الرى وما جاورها إلى مدينة السلام . فأقام بها وكتب عن شيوخها فأكثر . ثم صار إلى الكوفة فكتب فيها عن محمد بن العلاء الهمداني وإسماعيل ابن موسى وغيرهما . ثم عاد إلى مدينة السلام ، ولزم المقام بها مدة . ونفقه بها وأخذ فى علوم القرآن ، ثم غرب فخرج إلى مصر ، وكتب فى طريقه بأجناد الشام والسواحل والثغور وأكثر منها ، ثم صار إلى القسطنطينية سنة ٢٥٣ . وكان بها بقية من أهل العلم فأكثر عنهم الكتب من علوم مالك والشافعى وابن وهب وغيرهم . وهكذا ظل يتنقل ويأخذ كل علم من أهله وأئمة ، حتى انتهى به المطاف إلى مدينة بغداد ، وأفاض على الناس من علمه فى شتى الفنون ، وكتب مؤلفاته ، وما زال بها سراجاً منيراً ، وشمساً مشرقة ، حتى قضى سنة ٣١٠ هـ . هذه هى حياته الحافلة بالتماس العلم والنهم فى جمعه من جميع متبجعاته . والاستنتاج والإنتاج . وإذا فنزلة ابن جرير جديرة بما وصف الخطيب البغدادي إذ يقول :

« وكان أحد أئمة العلماء يحكم بقوله ، ويرجع إلى رأيه لمعرفة وفضله ، وكان قد جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من أهل عصره .

وكان حافظاً لكتاب الله ، عارفاً بالقرآن ، بصيراً بالمعاني ، فقيهاً فى أحكام

[١] من مذهبنا الحنفى ، أن البلوغ شرط فى صحة الإمامة .

القرآن ، عالماً بالسنن وطرقها ، وصحيحها وسقيمها ، ناصحها ومنسوخها ، عارفاً بأقوال الصحابة والتابعين ، ومن بعدهم من الخالفين في الأحكام وسائل الحلال والحرام ، عارفاً بأيام الناس وأخبارهم .

واتمد أعجب به العلماء والمؤرخون . وجميع أصحاب الفنون في فنونهم ، وذكر الرواة عنه كثيراً من العجائب ، فتمالوا إنه مكث أربعين سنة يكتب في كل يوم منها أربعين ورقة . وقالوا إن قوماً من تلامذته حصلوا أيام حياته منذ بلغ الحلم إلى أن توفي وهو ابن ست وثمانين سنة ، ثم قسموا عليها أوراق مصنفاته فصار منها على كل يوم أربع عشرة ورقة . وهم يذكرون لذلك نظائر حين يتكلمون عن أكثرها التصنيف ، كأبي الفرج الجوزي رحمته وجمال الدين السيوطي . ولعل في أحوال بعض المعاصرين . من أمثال الدكتور طه حسين باشا ، والأستاذ العقاد وغيرهما ما يترتب هذه الروايات ، فقد كان السابقون أفرغ بالاً ، وأبعد عن شواغل المدنية . وأقل منا أخذاً في خطوط الدنيا ومتعها .

ولعل ميزة للطبري لم يشارك فيها هي أنه يراحم رجال الاختصاص في اختصاصاتهم فلا يتخلف عنهم . بل لقد سبق كثيراً منهم ولا سيما في تفسيره الوحيد الذي جمع بين مسالك السلف في الرواية . والخلف في دقة الفهم والدراية .

فأبو جعفر مفسر بلغ مرتبة الإمامة في التفسير ، وفتن الناس بكتابته الذي انتشر منذ عهد ، وأكب الناس على قراءته ، يسترحون الطرف في فسيح رياضه ، ويملاون العتول غداء وكرعاً من حياضه ، وهو تفسير خالد يتحدى كل عالم ومفسر حتى اليوم . وقد ذكره الإمام المجتهد أبو حامد الاسفرائني فقال في شأنه « لو سافر أحد إلى الصين حتى يحصل له كتاب تفسير ابن جرير لم يكن ذلك كثيراً » .

ونقل الخطيب بسنده إلى عبيد الله بن أحمد السمسار قال .

« إن أبا جعفر قال لأصحابه : أنشطون للتفسير ، قالوا كم يكون قدره ، قال : ثلاثون ألف ورقة ، فتمالوا هذا مما تفتى الأعمار قبل تمامه ، فاقتصروا في نحو ثلاثة آلاف ورقة . ثم قال هل تنشطون لتاريخ العالم من آدم إلى وقتنا هذا ، قالوا كم يكون قدره فذكر نحواً مما قال في تفسيره ، ثم قال : إنا لله ، ماتت الهمم .

وهذا إن صح أكبر دلالة على همه ونشاط تفضل الأذهان في إدراكهما ، وقد

قالوا إنه أملاه من سنة ٢٨٣ إلى سنة ٢٩٠ .

ولعل لنا نظرة في تفسيره بعد .

ثم ابن جرير محدث عالم بالسنن وطرقها وصحيحها وسقيمها وناصحها ومنسوخها كما وصفه الخطيب . وقد ذكروا في تاريخه أنه كتب عن أبي كريب وحده أكثر من مائة ألف حديث . وهو عارف بأقوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم وقد رأيت ما كتب بمصر من علوم مالك وابن وهب والشافعي .

ولهذا فهو فقيه مستقل ، وإمام مجتهد يذكر في طبقات المجتهدين . وهو لم يقلد إلا في صباه يوم ابتدأ الفقه بمدينة السلام على مذهب الشافعي ، على أن له أتباعا يقلدونه من العلماء . منهم أبو بكر المعافى المعروف بابن طراز .

وأبو جعفر المؤرخ المشهور الذي جمع تاريخ الدين في كتابه مع تحر في الرواية وقوة في الأسلوب .

ثم هو في علوم العربية إمام جليل ، دلت على ذلك كتابته في التفسير وشهد له به أئمة العربية : كأبي العباس ثعلب الذي يقول فيه إنه من حذاق الكوفيين ، وكان قليل الشهادة لاحد بالحنق .

وسأحملك على نبذة مما كتب عنه أبو محمد عبد العزيز بن محمد إذ يقول : كان أبو جعفر من الفضل والعلم والدكاء والحفظ على ما لا يحمله أحد عرفه لجمعه من علوم الإسلام ما لم يجتمع لاحد من هذه الأمة ولا ظهر من كتب المصنفين واشتهر من كتب المؤلفين ما ظهر له . كان عازفا عن الدنيا تاركا لها يرفع نفسه عن التماسها . وكان كالتقاريء الذي لا يعرف غير القرآن ، وكالمحدث الذي لا يعرف إلا الحديث . وكان نحوي الذي لا يعرف إلا النحو ، وكالحاسب الذي لا يعرف إلا الحساب . وكان عالما بالعبادات جامعا للعلوم وإذا جمعت بين كتيه وغيرها وجدت لكتبه فضلا على غيرها . . . انتهى .

وقبل أن أختم هذه الكلمة ، أشير الى أنه روى عنه بعض منظومات تدل على ذوق في الأدب . وبصر فاحص بأساليب العرب ، ومن ذلك قوله :

خلقنا لا أرضي طريقهما بطر الغنى ومذلة الفقر
فإذا غيت فلا تكن بطرا وإذا افتقرت فته على الدهر

رحمك الله يا ابن جرير . وجعل منك في أمتنا أسوة صالحة كريمة .

وسائل النصر

المفاهيم السبع المتشابهة عبر العصور

المدرس محمد الفاضل

من مظاهر حكمته تعالى أن أبدع خلق الإنسان وسوى نفسه وجعلها زائفة بالآمال العذبة حافلة بالآمال الباسمة تواقه إلى أن ترى تلك الآمال حقيقة سافرة . وواقعا مشرقا ، وهي لذلك قد تسلك من الأسباب والوسائل ما تتخلف عنه النتائج فتفجع بالحيرة والحرمان ، والهزيمة والاندحار وهي أشد ما تكون حاجة إلى النصر وشوقا إليه ولهفة عليه فكان من مزيد عنايته تعالى بعباده أن بين لهم أن النصر تابع لثباتهم محكم دقيق وسنة كونية خالدة فن تنكب عنها تردى في هاوية الذل والهوان ومن استوى على صراطها خالفه العون والإمداد والعز والإسعاد فقال جل شأنه (يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) ومن أوفى بعهده من الله ؟ ومن أقدر منه على تنفيذ مراده فهو قيوم الأرض والسموات والمهيمن على شئون عباده ، والقابض على ناصيتهم . فما من مخلوق إلا واقع في قبضته وجل من سطوته . شملته إرادته ونفذت فيه قدرته وأحاط به قهره وسلطانه ، ولا يتم من أموره إلا ما اقتضته حكمته وتعلقت به مشيئته . بيده ملكوت كل شيء لا معقب لحكمه ولا راد لقضائه (وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو ، وإن يمسسك بخير فهو على كل شيء قدير ، وهو الظاهر فوق عباده ، وهو الحكيم الخبير) .

والنصر الذي طلبه تعالى من عباده يكون برعاية دينه ولذلك دعائم ثلاث — الأولى عميدة قوية — الثانية عبادة خالصة لله وحده — الثالثة إحسان في معاملة خلقه : فسلامة العقيدة أن تخالط القلوب بشاشة الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر .

وأنه سبحانه صاحب العلم المحيط والسلطان الظاهر ، فلا يعلم الغيب سواه ولا

شركة معه لنبي ولا لولي ، ولا ينازعه منازع في السيطرة على شئون خلقه فهو العظيم مجده ، الغالب جنده ، النافذ قضاؤه . السابغ عطاؤه (له متاليد السموات والأرض يسط الرزق لمن يشاء ويمدر إنه بكل شيء عليم) فليس من الإيمان في شيء أن يتوكل الشخص على غير ربه ، أو يلتزم النذر لسواه ، أو يعتقد الضر والنفع في مخلوق من مخلوقاته (إن كل من في السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً ، لقد أحصاهم وعدهم عدا ، وكلهم آتية يوم القيامة فردا) : ومن الكفر الصريح ما يفعله ضعاف العقول والسفهاء من اللجوء إلى هؤلاء الدجالين الفجار الذين يدعون علم الغيب وكشف المستقبل ، ويزعمون أن لهم قدرة على جمع القلوب وتفريقها وتيسير الزواج وإنجاز الحمل ، وإطالة أعمار الأولاد ، وأن لكتاباتهم وأحجبتهم تأثيراً في الحفظ والإسعاد (كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا) . وما تلك الأساليب إلا شباك يصطادون بها الأموال من البله والمغفلين . ولو صح أن لهم طاقة على تحقيق ما يدعون . لكان الأولى أن يسمدوا أنفسهم ولا يكذبوا في جلب دريهمات يسيرة يمتثلون لسلطانها من وقع في شركهم . ولا ريب أن المسلم الذي يثق هؤلاء قد انطفأ مصباح الإيمان في قلبه وأحاطت به ظلمات من الكفر بعضها فوق بعض (ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور) وإذا أراد هذا المسلم أن يدرك حكم الرسول الكريم عليه فليستمع إلى ذلك بعد أن يزيل أكنة قلبه ووقر أذنه . فتمدقضى صلوات الله وسلامه عليه في مثل هذا الشخص قضاء مبرما ، فقال (من أتى عرافاً أو كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد) وصدق الرسول عليه الصلاة والسلام فإن ما أنزل عليه هو قوله تعالى (قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء) فإذا كان الرسول وهو أكرم الخلق على الله لا يملك النفع والضر لنفسه فضلاً عن أن يملكه لغيره وتبرأ من علم الغيب ، أفيملك النفع والضر ويعلم الغيب هؤلاء الأرجاس الملوثون ؟ ولكن صدق الله حيث يقول (فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور) الأمر الثاني : إخلاص العبادة له وحده بأن تملأ قلبك بحلاله وعظمته . عابداً له كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك . ملتزماً بالمنهاج الذي ارتضاه لتقديسه وتمجيده مسارعاً إلى إقامة العبادات مستوفية لشروطها وأركانها قريرة

بها عينك مبهجة بها نفسك ، حريصاً على أن يظهر أثرها في السلوك والحياة العملية معتقداً أن ثمرة ذلك ترجع إليك وحدك ، فهي تزيك لروحك ، وتطير لقلبك ، وتكريم لشخصك وسمو بإنسانيتك ، وتشريف لها بمناجاة الله تعالى والاتصال به والحصول على عظيم امداده ووافر جزائه (ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه إن الله لغني عن العالمين) فما عبد الله من حج رياء وسمعة . أوقام إلى الصلاة مثاقلاً متباطئاً غافل القلب في أدائها ، حتى أضحت صوراً وأشكالاً لاحقيقة لها ، وجسماً ميتاً لاحياة فيه . وحقيق بمثل هذا ألا يكون عابداً لله ، وألا يصح انتسابه لرسول الله فقد روى أن حذيفة بن اليمان رضى الله عنه رأى رجلاً يسرع في صلاته فقال له : ما صليت ولو مت على ما أنت عليه مت على غير الفطرة التي فطر الله عليها محمداً .

الأمر الثالث : الإحسان في المعاملة بمراقبة الله تعالى في عباده بأن يشعر كل إنسان أنه لبنة في بناء المجتمع فعليه أن يركز جهوده في إسعاد بني جنسه وتوفير هئاتهم ويتبادل معهم المودة والإخاء والأنس والصفاء وذلك قوام كل مجتمع صالح يتوئب أفراده للنهوض وبلوغ أوج العزة والكمال . وإلا فما قيمة مجتمع لا يرحم فيه الضعفاء ولا تسمح عبرات الأشقياء ولا يعطى السائل والمحروم حقه في مال الأغنياء ولا يؤخذ على يد الظالم ولا ينتصف للظلم . وتهذر الكرامات . وتنتهك الحرمات عندئذ تكون الحياة جحيماً مستعراً وعذاباً وبيلاً .

ومن الإحسان في المعاملة إصلاح ذات البين وجمع الكلمة وتوحيد الصفوف لمحاربة العدو الغاشم والتسلح له بالسلاح الذي يخافه ليظل جانبنا عنده مهيباً وسلطاننا مرهوباً . ولتنظر نظرة عابرة إلى قوله تعالى (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم) فإنه سمت حكمته لم يحدد نوع القوة التي نعدّها لتفسر في كل زمان بما يرهب أعداء الإسلام : - والاستعداد على هذا النحو هو السلم المسلح الذي يمنع عدوان القوى على الضعيف ويفيض الأمن في ربوع البلاد فيعيش العالم في سلام دائم وصفاء شامل :

هذا هو هدى الله في نشر الأمن بين الناس لا ما تزعمه تلك الدول العاتية من حماية السلام وأقامت لذلك مجلساً يسمى مجلس الأمن . وأحاطته بسياج براق من الدعاية الزائفة . وما هي إلا أساليب ماكرة خادعة تُضمّر وراءها خنثى الثعالب وروغانها وشراسة الذئاب وغدرها واغتيال الأمم المستضعفة والتهام الشعوب المغلوب على أمرها . نخذوا حذرکم منه أيها المسلمون فمثل هذا الصنيع

الائيم صدر عن شخص تراحت عناصر الشر في نفسه ولم يعدم طلاء خداعاً فنزل فيه قول العليم الحكيم (أسس بذيانه على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم والله لا يهدي القوم الظالمين) .

أما : إذا أردتم أن يكون النصير حليفكم في قضاياكم العامة والخاصة ، فلا يكفي لذلك وضوح القضية ، بحيث لا يرتاب أحد في عدالتها ، أو إقامة الحجج التي ترفع شأن حكمكم ، وتدفع باطل عدوكم . بل لا بد مع هذا كله من سلوك الأسباب التي هداكم الله إليها ، وأن تصلحوا ما بينكم وبينه ، وتستمسكوا بهديه . وتجتمعوا على طاعته . والاعتصام بحبل مودته ، فقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من حاول أمراً بطاعة الله كان أقرب مما رجا وأبعد مما اتقى . ومن حاول أمراً بمعصية الله كان أبعد مما رجا وأقرب مما اتقى » . وفي هذه المدرسة القدسية تلقى تلك التعاليم الحكيمة أبطال الإسلام الذين نصرُوا بالرعب ودانت لهم أعناق الجبابرة ، وكانوا رحمة مهداة إلى الإنسانية ، رفعوا عنها إصرها ، وأقالوها من عثرتها . وأسدوا إليها الحياة المساجدة ، والمدنية الفاضلة . وما ظفروا بهذا التوفيق البارِع ، إلا لأنهم اتخذوا طاعة ربهم معراجاً لكسب ولايته . وجميل رعايته « ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون » .

كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى سعد ابن أبي وقاص وقد أترده على حرب العراق .

(أما بعد فإنني آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال فإن تقوى الله أفضل العدة على العدو وأقوى المكيدة في الحرب . وآمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراساً من المعاصي منكم من عدوكم . فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم . وإنما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله . ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة لأن عدونا ليس كعددهم ولا عدتنا كعدتهم ، فإن استوينا في المعصية كان لهم الفضل علينا في القوة ، وإلا تنصر عليهم بفضلنا لم نفلهم بقوتنا)

أيها المسلمون : هذا شعار أسلافكم فترسموا خطاهم واحملوا مشعل هدايتهم وجدوا السير في طريقهم وعندئذ لا تكون يد عليكم إلا يد الله وهي معكم بالعون والإمداد أينما تتجهون . ولا تهول لكم قوة عدوكم فهي منهارة أمام تأييد الله لكم « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين » .

حرف بمانبہ الف

افضلة الأستاذ الشيخ أحمد الشرباصي

المدرس بالأزهر الشريف

لله در أبي منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي النيسابوري^(١) حين قال في فاتحة كتابه « فقه اللغة » :

« من أحب الله تعالى أحب رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم ، ومن أحب الرسول العربي أحب العرب ، ومن أحب العرب أحب العربية ، التي نزل بها أفضل الكتب ، على أفضل العجم والعرب ، ومن أحب العربية عني بها ، وثابر عليها ، وصرف همته إليها ، ومن هداه الله للإسلام ، وشرح صدره للإيمان ، وآتاه حسن سريرة فيه ، اعتقد أن محمدا صلى الله عليه وسلم خير الرسل ، والإسلام خير الملل ، والعرب خير الأمم ، والعربية خير اللغات والألسنة ، والإقبال على تفهمها من الديانة ، إذ هي أداة للعلم ، ومفتاح التفقه في الدين ، وسبب إصلاح المعاش والمعاد ، ثم هي لإحراز الفضائل ، والاحتواء على المروءة ، وسائر أنواع المناقب ، كالينبوع للماء ، والزند للنار ، ولو لم يكن في الإحاطة بخصائصها ، والوقوف على مجاريها ومصارفها ، والتبحر في جلائلها ودقائقها ، إلا قوة اليقين في معرفة إعجاز القرآن ، وزيادة البصيرة في إثبات النبوة . التي هي عمدة الإيمان ، لكنني بهما فضلا يحسن فيهما أثره . ويطيب في الدارين ثمره : فكيف وأيسر

[١] ولد في نيسابور سنة خمسين وثلاثمائة ، وتوفي سنة تسع وعشرين أو ثلاثين وأربعمائة .

وكتبه كثره ، وتاريخه مبسوط .

ما خصها الله عز وجل به من ضروب المادح ، يُكل أعلام الكتبة ، ويتعب أنامل الحسبة ؟ (١) .

نعم فالعربية لغة آثرها الحق منذ القدم بتمجيده ، وهياها لتكون لسان وحيه ، وصوت عبادته ومناجاته ، فكان من صنعه سبحانه لها أن برع أهلها في طرائقها وفنونها ، ومهروا في تشقيتها وتصريفها ، وأبدعوا في تضمينها الكثير من أسرارها ورموزها . ثم جاء قوم منهم في ركاب الإسلام الساطع فتعبوا في ضبط شواردها ووضع قواعدها وتنظيم أبوابها ، وحرصوا على تعلمها وتعليمها ؛ وانفقت كلمة هؤلاء وأولئك على وسم المهمل لها المخالف لأحكامها الجاهل لقواعدها بسمة الشين والعيب ، حتى كانت سبة « اللحن » من أقوى العوامل في إسقاط مكانة الرجل والإزاء عليه !

ومن عجب أمر هذه اللغة الشريفة العريقة أن لها من الدقائق والخفايا ما يستثير شغف اللبيب ، ويستحوذ على جهد القادر ، ولا تزال هذه الدقائق تبدي من أضوائها وتطوى حتى تبعث العجب والإعجاب ، وكم من دقائق وكنوز اشتملت عليها كتب العربية من قديم !

ومن بين أسرارها أن الكلمة الواحدة من كلماتها تدخل عليها الحركة الواحدة فتال حرفاً واحداً من حروفها فتكسب الكلمة بهذه الحركة معنى خاصاً فإذا ارتفعت هذه الحركة عن هذا الحرف من تلك الكلمة وجاءته حركة أخرى زال المعنى الأول ، وجد للكلمة معنى آخر ، وهكذا لا تزال المعاني تتكاثر وتختلف بتتابع هذه الحركات واختلافها ، وكل هذا مما يحتاج أشد الاحتياج إلى الإلباء من الرقباء الدارسين يعكفون باحثين وملاحظين ، ثم مقيدون وحافظين . ثم ناشرين ومعلمين ، وبهمم هؤلاء تظل العربية مرفوعة اللواء زاهية الرواء .

خذ على سبيل المثال كلمة « السداد » . . . وهي كلمة واحدة من جملة كلمات تشملها مادة السين والداال المشددة . . . إن هذه « السين » من كلمة « السداد » تلك تكون مفتوحة تارة فيكون معناها التصد والتقويم والتوفيق والصواب ؛ جاء

في النهاية لابن الأثير ما ملخصه : « قاربوا وسددوا : أى اطلبوا بأعمالكم السداد والاستقامة ، وهو القصد في الأمر والعدل فيه ؛ وقال الرسول العلي : سل الله السداد واذكر بالسداد تسديدك السهم ، أى إصابة القصد ، وسئل عن الإزار فقال : سدد وقارب . أى اعمل شيئاً لا تعاب على فعله ، فلا تفرط في إرساله ولا تشميره ، وفي صفة متعلم القرآن : يغفر لأبويه إذا كانا مسدين (بكسر الدال وفتحها) أى لازمى الطريقة المستقيمة . . . وكان له قوس تسمى السداد ، سميت به تفاؤلاً بما يرمى عنها . »

وفي أساس البلاغة للزمخشري : « وهو على سداد من أمره وسدد ، وقالت له سداداً من القول وسدداً ، واللهم سددنى : وفقنى . . . وأتتنا الريح من سداد أرضهم : من قصدها . قال :

إذا الريح جاءت من سداد بلادها أنا ما بها مسك ذكى وعنبر

وفي القاموس المحيط : « سده تسديداً قومه ووقفه للسداد . أى الصواب من القول والعمل ، وسد يسد صار سديداً ؛ وأسد أصاب السداد . »

وتارة تكون السين مكسورة ، فيتغير معنى الكلمة دون تغيير أو تبديل ، أو زيادة أو نقص في حروفها أو بقية حركاتها . . . إن معناها حين الكسر يكون شيئاً آخر غير معناها عند الفتح :

في النهاية لابن الأثير : « حتى يصيب سداداً من عيش أى يكفى حاجته . والسداد بالكسر ، كل شيء سددت به خلا . وسمى به سداد الثغر والقارورة والحاجة . . وفي الأساس : « سد الثلمة فانسدت واستدت وهذا سدادها . . ومن المجاز : فيه سداد من عوز بكسر السين . يقال : ما به سداد أى عيب يسداه فلا يتكلم . » وفي القاموس : « وأما سداد القارورة والثغر فبالكسر فقط ، وسداد من عوز وعيش ما يسد به الخلة ^(١) ، ويفتح ، أو لحن . . . » وفي فقه اللغة للثعالبي : « كل شيء سددت به شيئاً فهو سداد ، وذلك مثل سداد القارورة وسداد الثغر وسداد الخلة » ^(٢) .

فإذا ضمت هذه السين كان للكلمة معنى ثالث بعيد عن المعنيين السابقين ، إنه يصبح داءً غير مستطاب ، جاء في القاموس المحيط : « والسَّدَاد (بضم السين) داء في الأنف » (١) . ولمثل كلمة « السداد » في ألفاظ اللغة مئات ومئات من المثيلات والشبهات ...!

ومن لطيف ما يروى عن كلمة « السداد » تلك كشاهد من شواهد عناية السابقين بالعربية ، وحرصهم على حفظها وتنقيتها . وكلف القادرين من رجالها بإثابة حراسها وإجزال العطاء لهم ، وعيهم من لحن فيها أو أخطأ ؛ ما ذكره التاريخ عن النضر بن شميل (٢) الإمام الثقة في العربية والحديث . فقد كان من عادته أن يدخل على الخليفة المأمون في سمرة (٣) ، فدخل عليه ليلة وقد لبس قيصا مرقوعا ، فعجب منه المأمون وقال له : يا نضر ، ما هذا التقشف حتى تدخل على أمير المؤمنين في مثل هذه الثياب ؟ فأجاب النضر : يا أمير المؤمنين أنا شيخ ضعيف وحر مروح (٤) شديد ، فأبرد بهذه الخلقان (٥) . قال المأمون : لا ولكنك متقشف .. ثم جرى الحديث بين الجمع ، والحديث ذو شجون ، فأجرى المأمون ذكر النساء فقال : حدثنا هشيم عن مجالد عن الشعبي عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا تزوج الرجل المرأة لدينها وجمالها كان فيه سداد من عوز » ونطق كلمة « سداد » بفتح السين منها . فقال النضر :

[١] نحن نتكلم عن اختلاف المعنى باختلاف الحركة دون تعرض لتفصيل العلاقات المجازية التي قد تكون هناك بين أحد المعاني وبقيتها .

(٢) ولد سنة ثلاث وعشرين ومائة هـ وتوفي سنة أربع ومائتين . [٣] قال أبو سليمان الخطابي في حديثه عن إنجاز القرآن مشيراً إلى دخول النضر على المأمون : « وأما فـول القائل لصاحبه : أقعد واجلس ، فقد حكى لنا النضر بن شميل أنه دخل على المأمون عند مقدمه مرو ، فثل بين يديه وسلم ، فقال له المأمون : اجلس . فقال : يا أمير المؤمنين لست بضطجع فأجلس . قال : فكيف تقول ؟ ، قال : قل أقعد . فأمر له بجائزة . قالت : ويان ما قاله النضر بن شميل إنما يصح إذا اعتبرت إحدى الصفتين بالأخرى عند المقابلة ، فنقول القيام والقعود ، كما تقول الحركة والسكون ، ولا نسميهم يقولون القيام والجلوس ، وإنما يقال : أقعد الرجل عن قيام وجلس عن ضجعة أو استلقاء ، أ هـ .

[٤] مرو : بلد بفراس [القاموس] . [٥] الخلقان : بضم فسكون الثياب التي لبست حتى لبست عن الأساس] .

« صدق (١) يا أمير المؤمنين هشيم ، حدثنا عوف بن أبي جميلة عن الحسن ابن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا تزوج الرجل المرأة لدينها وجمالها كان فيها سداد من عوز ، . ونطق كلمة « سداد » بكسر السين كما يجب .

وكان المأمون متكئاً فاستوى جالساً ، وقال : يا نضر ، كيف قلت سداد ؟ . قال : لأن السداد هنا لن . فقال : وتلخني ؟ . فأجاب النضر : إنما لن هشيم وكان لحانة ، فتبع أمير المؤمنين لفظه . قال المأمون : فما الفرق بينهما ؟ . أجاب النضر : السداد بالفتح القصد في الدين والسبيل ، والسداد بالكسر البلغة (٢) وكل ما سددت به شيئاً فهو سداد . قال المأمون : وتعرف العرب ذلك ؟ . قال : نعم ، هذا العرجي يقول :

أضاعوني ، وأى فتى أضاعوا ليوم كريمة وسداد ثغر

فأطرق المأمون ملياً . ثم قال : فيح الله من لا أدب له ، ثم أخذ يسأل النضر عن أخلب بيت للعرب وأنصفه وأفغعه ، فأشده أبياتاً جزلة فيما سأل . فتمال له : أحسنت يا نضر . وسأله عن ماله وحاجته . ثم كتب المأمون إلى الفضل بن سهل ليعطى النضر خمسين ألف درهم . فضى النضر إلى الفضل . فلما قرأ الفضل التوقيع وفيه تلخيص القصة ضحك وقال : يا نضر ، أنت المملحن لأمير المؤمنين ؟ . قال : لا بل لهشيم . قال الفضل : فذاك إذاً . وأعطى النضر الحسين ألفاً التي أمر بها المأمون ، ثم أعطاه فوقها ثلاثين ألف درهم من عنده ، فتمت للنضر ثمانون ألف درهم ثواباً لتصحيح حركة حرف في كلمة (٣) !! .

وهذا البيت الأخير الذي استشهد به النضر . وجاءت فيه كلمة « سداد » كان إنشاده سبباً في رد الحرية على مفشده السجين ، فعن عبد الله بن رجاء الغداني قال :

[١] البلغة بضم فسكون : كل ما يبلغ به من العيش . [٢] ذكرت القصة في دتهذيب الأسماء واللغات ، للنووي في ترجمة النضر بن شميل ، كما ذكرت في الأغاني ، وهذه نقلها صاحب كتاب « من أخلاق العلماء » .

كان لابي حنيفة جار بالكوفة إسكاف^(١) يعمل نهاره أجمع ، حتى إذا جنه^(٢) الليل رجع إلى منزله وقد حمل لحماً فطبخه ، أو سمكة فيشويها ، ثم لا يزال يشرب حتى إذا دب^(٣) الشراب فيه غنى بصوت ، وهو يقول :

أضاعوني ، وأى فتى أضاعوا ليوم كريمة وسداد ثغر

فلا يزال يشرب ويردد هذا البيت حتى يأخذه النوم ، وكان أبو حنيفة يسمع جلسته ، وأبو حنيفة كان يصلى الليل كله ، ففقد أبو حنيفة صوته فسأل عنه فقيل : أخذه العسس منذ ليل وهو محبوس . فصلى أبو حنيفة صلاة الفجر من غد وركب بغلته واستأذن على الأمير ، قال الأمير : إيدنوا له وأقبلوا به راكباً ، ولا تدعوه ينزل حتى يظأ البساط . ففعل ، فلم يزل الأمير يوسع له من مجلسه ؛ وقال : ما حاجتك ؟ قال : لى جار إسكاف أخذه العسس منذ ليل . يأمر الأمير بتخليته فقال : نعم ، وكل من أخذ فى تلك الليلة إلى يومنا هذا . فأمر بتخليتهم أجمعين ، فركب أبو حنيفة والإسكاف يمشى وراءه . فلما نزل أبو حنيفة مضى إليه . فقال : يا فتى ، أضعناك ؟ قال : لا ، بل حفظت ورعيت . جزاك الله خيراً عن حرمة الجوار ورعاية الحق . وتاب الرجل ولم يعد إلى ما كان !^(٤)

وهكذا شهدت العربية فى عصورها الزاهرة ميادين بحث يستفيض حولها فيجدد إهابها ويحفظ شبابها . وكانت هذه الميادين عامرة بالفرسان الذين يذودون عنها ويحمون ذمارها . وبالنمادة الذين يمجدون أولئك الذائدين ويجزونهم خير الجزاء ؛ والمأمول أن يقيض الله لهذه العربية المجيدة التليدة من أشبالها ورجالها من يصل سلسلة العكوف عليها والهيام بها والذب عنها . حتى تظل لغة الكتاب والخطاب !!

اللهم لا تجعل فى طرقنا إلى الخير « سدادا » : وهب لنا من لدنك فى ديننا ودينانا « سدادا » ... !

[١] فى فقه اللغة : كل صانع عند العرب فهو إسكاف . [٢] جنه : ستره ، واستجن

بجثة استتر بها : وجن عليه الليل ، وواراه جنان الليل أى ظلمته . ، الأس ، ،

[٣] دب الشراب فى العروق : أى أثر وثار .

[٤] انظر كتاب « من أخلاق العلماء » ص ١٨٥ وقد نقل القصة عن تاريخ بغداد .

الشعر المسرحي

للمؤلف: محمد حمزة الشبغ

ليسانسه في الأدب

يتردد في الميدان المسرحي بين آن وآخر سؤال ، لا يكاد يحظى بجواب شاف ، من التأمين على المسرح وشئونه ، أو من الأدباء الذين يحفلون بالنقد المسرحي ، ويعالجونه بأقلامهم بين الحين والحين ...

والسؤال الحائر يريد أن يستكشف المحور الذي يدور حوله الشعر في المسرحيات . والأفق الذي يمتد إليه بالبحث والدرس ، والدور الذي يقوم به في التمثيلات . وهو سؤال ، وإن بدا للناظر العابر ، ذا صبغة فنية خالصة ، إلا أن ذلك لا يمثل في الواقع ، غير جانب واحد من السؤال الذي نستطيع أن نصوغه صياغة أشمل وأعم لمعناه ومرماه . فنقول : ما هي علاقة الفن بالظواهر التي تبدو لأعيننا ، أو بتجاربنا الحسية والعقلية والخيالية ؟

وفي الحق إن الرواية الثرية ، نظراً لبساطتها ، استطاعت اليوم أن تنزع الغلبة من الرواية المنظومة . حتى لقد أصبح النظم وسيلة تعبيرية شاقة ، لا يستجيب لها غير النذر اليسير من الأدباء ، الذين يدركون أن التمثيلات الثرية ، في جوهرها ، لا تخلو من الغرابة والشذوذ ، عما ألفه المسرح التمثيلي في أزهر أيامه . وأحفلها بالتناج الفني الرفيع ؛ بل إنهم ليرون المسرحيات الثرية جداً ضائعاً ، وكفاحاً لا يشعر ، في سبيل ابتناء قصور فوق الرمال .

ونحن إذا نظرنا إلى شخصيات المسرحيات المنظومة ، وجدنا الشعر هو البوق الوحيد الذي لا تستطيع أن تنطق إلا من خلاله . لأن الشعر يعتبر قوامها ، الذي لا فكاك لها عنه ، ونسيجها الذي لا يمكنها الظهور إلا من بين ثيابه ؛ بل إننا لنحكم على تلك الشخصيات حكماً جائراً كل الجور إذا أردنا لها غير الشعر وسيلة من وسائل التعبير . فمثل هذه الشخصيات تفترق عن تلك التي تصادفنا في حياتنا

اليومية ، لأنها قد انصهرت في بوتقة التشذيب والتبسيط Simplification . ثم تعرضت بعد ذلك لتركيز ألوانها ، والمبالغة في أصباغها ، حتى غدت الدوافع الأولية ، التي تحملها على أقوالها وأعمالها ، أكثر وضوحاً وجللاء . عنها في الحياة الواقعية التي تضطرب في موكبها ، وتختلط علينا ظواهرها ، وتشابك أوضاعها ، وتتداخل ظلالها . وهذه العملية التي تنهض على التشذيب ، وتقوم على التبسيط للتوى التي تتألف منها دوافع الحياة اليومية . لا بد أن تسير في ركابها عملية أخرى ، يستحيل بها ما تواضعنا عليه في الحياة اليومية من أدوات تعبيرية سقيمة ، إلى صور بيانية رائعة كالاستعارة Metaphor والتشبيه Simile وغيرهما .

وإلى جانب ذلك فالشخصيات التي نستعرضها فوق المسرح ، تكون أقوى حجراً ، وأشد تأثيراً من الشخصيات التي نتألمها في الحياة اليومية . . . ويعزى ذلك لما تمتاز به الشخصيات المسرحية من طابع منظم . ومظهر رتيب exaggerates shapeliness . يعوز ما تموج به الحياة الواقعية من شخصيات يسودها اختلاط الطبع . وغموض الطابع ، ومثل هذه الشخصيات ، بما تمتاز به من نظام وانتظام ، لا بد أن تفرغ حدينها في أسلوب تمتاز به هو الآخر ، ويسير جنباً إلى جنب مع مظهرها وطابعها . ومن ثم تطلق في حديثها ، فإذا هو حديث يجري طبعياً . كما تجري الدماء في الشرايين ، فيتوالى في أوزان مضبوطة . كما تتوالى الدماء في ضربات منتظمة ، واكنا نجد للنظم ، فوق ذلك كله . وظائف أخرى في التمثيلات الشعرية . وسواء اتفق النقاد الأدبيون أم لم يتفقوا على أن انتظام الطابع في الشخصيات المسرحية ، وتركيز ظلالها ، يستتبعان استنطاقها شعراً ، فإننا على أى حال ، لن نجد بينهم من ينكر إمكان صياغة الرواية الناجمة بأسرها ، في قالب شعري خالص ، يخلو من الصنعة ، التي تجافى الذوق الأدبي السليم ، وتتفق مع تيار الحياة نفسها ، ومن ثم تزداد مقاومة الشخصيات لذلك التيار ، كما يزداد توهجها ، وتردهى ألوانها ولذلك فإن كل لفظة في التمثيلية المنظومة ، لا بد أن يحقق غرضين إثنين فزيد الشخصية إيضاحاً ، ويمثل الأحداث خطوات إلى الأمام .

أما الهدف الذي ترمى إليه التمثيلية ، فهو وصف أدواء الحياة . والبحث في وسائل علاجها . . . وهي تجسم هذه المشاكل ، وترسمها في قالب واضح ، عميق الأثر . وهكذا تصبح التمثيلية وسيلة عقيمة النفع في تصوير الحياة ونقدها .

وليس التعبير الشعري في التمثيلية . بالنسبة للتجارب التي تصورها ، إلا كآخر بالنسبة للكرم . ولذا نستطيع أن ننظر الى استخدام الشعر في التمثيلات كطريقة لتحقيق طبيعتها الاصلية التي تكمن وراء الفكرة Conception ، والتعبير expression .

والتعبير الشعري ، لا يهيء للفكرة الشعرية مجالا فسيحا لحسب ، بل إنه يتيح لها ، الى جانب ذلك . أن تصل من نفوسنا الى أغوار لا يصل إليها الشعر ، مهما كان حظه من البلاغة موفورا .

ولعل السر الغامض الدقيق في ذلك ، هو بعد ما بين الشعر والمظهر الخارجي للحياة . وقرب ما بينه وبين الرغبات الروحية التي تعمل بين جوانحنا ، والتي لا نستطيع أن نجد لها صدى حقيقيا في الحياة الواقعية .

ونحن نستطيع بعد ما تقدم ، أن نحمل الهدف الذي يتجه الشعر التمثيلي نحو تحقيقه . . ذلك الشعر الذي يسرى في أجسادنا ، وأرواحنا ، وعمولنا ، فيوقظ منا الحواس ، والعواطف ، والقوى المفكرة ، ويربط بينها جميعا في انسجام عجيب . قوامه الشعور بالذات الذي يستحيل معه ذلك المصير الغامض ، الذي ينساق إليه الإنسان في حياته ، إلى ضوء شامل غامر ، يستمد بريقه وبهاؤه من ذواتنا ، بل من رغباتنا العميقة التي تستقر في أغوار نفوسنا .

فالتثيلية الشعرية . إنما ترمى إلى الكشف لسامعيها ، عن مواطن السرور في الحياة . وعن التوى الكامنة في النفوس البشرية ، التي تيسر لها الحياة الرغيدة الصافية ، بل إنها لتجعل تلك القوى حتمية واقعة ، ماثلة أمام أبصارنا ، يتردد صداها في آذاننا كلما خلونا إلى أنفسنا بين الحين والحين . . وجماع ذلك كله أن الشخصيات التي نشاهدها فوق المسرح ، وهي تفرغ حديثها في أشعار طبيعية ، لا صنعة فيها ولا اصطناع ، إنما هي شخصيات تحفل شتى جذباتها بالحياة العميقة المفعمة بالقوة والصدق في أوجهها . ومن ثم فإننا لا نعجب حين نراها تواجه المصير . الذي يختاره لها الشاعر ، في عزة وشم وإباء نمجدها جميعا ، وتتمنى أن يكون لنا منها قدر يسير حتى نحيا فيها حين تتلاطم أمامنا أمواج الحياة ، حتى لنكاد نضل في مساريها المتشابكة ، وشعابها الفسيحة المنفرقة .

عجالات في الأدب

لفضيلة الأستاذ الشيخ كامل محمد عويش

مدرس بالجمهورية العربية السورية

كلما خلوت إلى كتاب من تراثنا الخالد وأدبنا الذي تعمق في القدم وجرى على أسلة الأفلام الفضة . وتمخضت عنه القرائح التي يعتز بها تاريخ الأدب العربي وانتاج الإسلامى . أجدنى أمام مخلفات حية ولفحات مشرقة تزيد على مر الأجيال صدقا ، وكأنما ألهم صاحبها أو كأن الغيب طوى له . فعبير في أسلوب أو شرح خالجة أو صرف فكرة . أو ألقى تجربة ، أو رسم معلما فيه هداية اليراعات التي تزيد النسخ في معترك المجتمعات الساذرة ، والسارية في مهاب الحياة والأحياء وفى بيئات مترامية كما شاءت الأزمنة والأمكنة .

والأقلام القديمة المفتتة كان فى أكثرها ضلال الاستطراد وشاهدنا قلم الجاحظ ، وصناعته فى (كتاب الحيوان) أكبر دليل وحتى الأوائل من مؤرخى الحياة الإسلامية والعربية نجد عند كثير منهم مزج الطرفة بالفكرة بالحظ الذى يهدف إليه المؤرخ ، وعندما تطالع صفحات من (مروج الذهب) يداخلك العجب والدهش ما دمت فى صحبة (المسعودى) .

ولن أطيل ولن أهرق القارىء بنقل نصوص يضيق بها فراغ (الصحيفة) .

غير أنى بصدد التحدث عن (حوار) يلقانى وألقاه فى كتب الأدب القديم ويعجبني ويحلولى أن يلتفت كل مصاحب للقدامى من كتابنا به فإذا تدبرنا فن الحوار ووقفنا عنده طويلا وقارنا بينه وبين آثار من (يعاصرنا) من ضياع الحوار الذين نعدم فى الطليعة المحدثه المجددة نجد . بل نشهد . بل نصفق إعجابا للسبق الموفق والاستعداد القوى والموهبة عند (صاحب الأغاني) مثلا .

فأنت أيها القارىء الكريم إذا صحبته حين يتمصر أخبار عمر بن أبى ربيعة فى الجزء الأول . وإذا خضت فى مؤلفه وما جمعه عن امرئ القيس أو الفرزدق

ثم طويت الكتاب وعدت ثانية إلى قطع متجاورة أو متباعدة من (الصياغة) القلمية وجدت أبا الفرج الاصفهاني يكاد يبلغ القمة في علاج الحادثة وإن صغرت والفكرة وإن بلغت من القصر والايجاز مبلغا قد يلفت بعض القراء ، فقد يبلغ بها مبلغ السحر والإيجاز من فرط اليسر والاتقان والامعان في التصوير الفني البياني وهو الذي لا يبارى في سبك الحوار وإلباس الفكرة ما ينتملك في خفه ويرفك في إطراب ويحملك على جناح النشوة ، وهو نسيح وحده حين يتص موقف أمير الشعر الجاهلي مع الفتيات اللاهيات في « دارة جلجل » .

ولا يعنني هنا مبلغ ما فيها من مطابقة ما وقع لامرئ القيس ، ولكن الذي لا مرية فيه ، أن صاحب الأغاني ابتكر علاجاً جذاباً وإخراجاً محاوراً صادقاً للحياة اللاهية اللاعبة حين ينبغي أو تبغى الفتيان والفتيات الإقبال على الاستمتاع باللهو في مفاتن المساء بصحراء العرب .

حتى إذا جددت الحياة الإسلامية ولعب الفرزدق وأمثاله أدوارهم في حمل راية الشعر في عواصم النهضة الإسلامية . ووجدوا سابقات لامرئ القيس وأضرابه فسولت لهم حياة الشعر والشعراء أن يظفروا بها لأمانهم من السابقين فقلدوا أو كانوا على إصالة من وحي حياتهم .

ورأينا الفرزدق أو رأينا التاريخ يروى له كما روى لامرئ القيس .

ووجدنا صاحب الأغاني يتص قصته ويتص ما تعرض له الفرزدق من قسوة الحسان .

ولكن الذي أريد الإشارة إليه هو التحايل والتجاوز في إخراج القصة إخراجاً جميلاً موفقاً متمعاً حتماً وخالداً حتماً .

وكأنني بصاحب الأغاني قد راعى التناسق حين أراد أن يكتب (أخبار) فتى قريش وشاعرها (عمر بن أبي ربيعة) الذي طعم شعره بالحوار الشعري .

كأنني به راعى التناسب فطعم أغلب ما كتبه عن ذلك الشاعر بتعابير حوارية كلما قص أقصوصة أو روى خبراً عن خروج الشاعر إلى الطائف أو قفوله إلى مكة في مصيفه أو مشتاه في ملاعبه بين جواريه أو غادات السراة من قريش وأعتقد أن نقل (الشواهد هنا) لا مكان له لأن كتاب الأغاني في متناول كل قارئ أدب أو دارس فن يؤرخ حياة الشعراء والأدباء .



مركز تحقيقات كالمپوئر علوم اسلمى



مركز تحقيقات كالمپوئر علوم اسلمى

وكانوا يرتدون أقيية قصيرة متدلّية إلى تحت الركبة وسراويل ونعالاً ومن خلفهم يقف المشاة في صفوف متراصة ، وكان الفرسان يلبسون الدروع والخوذ المصنوعة من الصلب والمحلاة بريش النسور .

وقد أثر اختلاط العرب بالفرس والروم وغيرهم في تحسين نوع الأسلحة وفي تنظيم الجيوش الإسلامية ، ولا يرجع تفوق العرب على أعدائهم إلى الأسلحة التي استعملوها فحسب بل إلى ما امتازوا به من النشاط والخفة وسرعة الحركة والصبر على تحمل الشدائد والخماس الديني وبذل النفس .

وقد أورد المسعودي في كتابه مروج الذهب ج ٢ ص ٣٠٧ بعضاً من الأسلحة الحربية التي استعملها جند المأمون العباسي عند حصارهم بغداد ، ومن هذا الوصف نتبين أن الجند كانوا يحاربون وفي أوساطهم التباين (والتبّان : سروال صغير مقدار شبر يستر العورة المغلظة) والمناظر (الإزار : كل ما يستر الجسم) ويغطون رؤوسهم بالخوذ ، واتخذوا الدرق من الخوص (الدرة : هي ترس من الجلد ليس به خشب) واتخذوا البواري (البوري أو البورية : الحصار المنسوج من القصب وهو فارسي معرب) وقد طليت بالتمار وحشيت بالرمل والحصى .. على كل عشرة من المقاتلين عريف ، وعلى كل عشرة عرفاء نقيب ، وعلى كل عشرة نقباء قائد ، وعلى كل عشرة قواد أمير ، ولكل مرتبته .

وكان عرض الجيش جزءاً من تدريب الجند في أوائل عهد الدولة العباسية بخاصة في عهد أبي جعفر المنصور الذي اهتم بالجيش اهتماماً كبيراً وكان يحب أن يعرض جنده وهو جالس على عرشه لابساً خوذته ، ولما ولي المتوكل الخلافة العباسية أمر الجنود بتغيير زيهم القديم ، وألبسهم أكسية رمادية وأمرهم ألا يجعلوا السيوف على أعناقهم ، بل يضعونها في مناطق حول وسطهم .

واقعد أنشأ العباسيون الحصون على تخوم الدولة الإسلامية وهي الثغور وهذا نوع من أنواع الشؤون الحربية التي تدل على نشاط المسلمين ، وقد كانت حدود سوريا المتاخمة لآسيا الصغرى مصدراً للخطر بالنسبة للعباسيين من جيرانهم الروم لذلك أقيمت هذه الثغور وهي طرسوس وأذنة والمصيصة ومرعش وملطية . وكانت هذه الثغور يتناولها العباسيون أحياناً والروم أحياناً أخرى أثناء الحرب .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَيْسَ مِنْ هُنَا نَبَأٌ

نعود إلى نقد ما تصدينا له من كتاب الأستاذ خالد محمد (ليس من هنا نبأ)
فنتناول بعد الاطلاع على ما كتبه في الاشتراكية وفي تفصيل ما يجنيه الأجانب
من ثرواتنا .

اطلع الأستاذ كما اطلع غيره على أعمال الأوربيين وتقانيهم في الذهاب بعلومهم
ومدنياتهم إلى الغايات البعيدة ، وإلى ما يحملهم ذلك على الاحتكاك بالشرق للاستفادة
من ثرواته التي أهملها أهلها ، بل التي يجهلون ، ودرس بعض أساليبهم في الاستيلاء
عليها ، رأى ذلك كله فأثر في صميم قلبه ، كما يؤثر في صميم قلب كل وطني يحب لبلده ،
وفي لقومه ؛ فشرع يهيب بهم إلى الاستفادة من خيرات بلادهم ، وكف يد الأجانب
عنها ، ولم يدع وجها من وجوه التأثير في إيقاظ العزمات إلا أتى عليه في عبارات
بليغة ، وصراحة جريئة .

ونحن نحیی في هذه النزعة الشرقية ، ولكننا نرى أن ما كتبه يضر أكثر
مما ينفع ، فإن الأمم لا تنهض من سباتها بالكتابة ، ولكن بالعمل ، ولا تسير
إلى أغراضها طفورا ، ولكن تدرجا ، وفي أزمان مناسبة ، لا في عشية وضحاها ؛
فهل يشب الطفل إن ذكرت له مزايا الشبيرة ، أو يُبسل العليل إن سردت عليه
متاع الصحة ؟ .

إن الأوربيين وصلوا من العلم إلى آفاق بعيدة ، واستحدثوا من الآلات ما يمد
أمامهم كل العقبات التي تصادفهم ، فيستطيعون أن يحفروا مناجيس عشرات العمال
لاستخراج معادنه الثمينة بواسطة آلاتهم الحديدية القوية ، قبل أن يستطيع غيرهم
أن يحفروا ساقية صغيرة . أضف إلى ذلك أنهم درسوا أنواع المعادن المكنونة

في باطن الأرض ، وعرفوا كيفية استخراجها واستخلاصها مما علق بها ، وعللوا مزايها وفوائدها ، وطرق استخدامها ، واشتدت حاجتهم إليها ، وتحققوا أنها توجد في بلاد غير بلادهم . فأى طريق يسلكونها غير استئذان الأمم التي تملك الأراضي التي توجد في باطنها ، في أن يتولوا استخراجها والانتفاع بها إزاء دفع قدر من المال يتفقون عليه بينهما ؟

في هذه الحالة لا يسع الشعوب المستضعفة إلا قبول ما يعرض عليهم لشعورهم بعجزهم عن القيام بالاستفادة منها ، فيرون أن الانتفاع بمقابل استغلالها خير من تعطيلها . فإذا كان من حق أهل العلم من أبنائها التأثير من انتفاع الغير بها دون قومهم ، فمن واجبه أيضاً أن يعرفوا أن الضن بها يعرض استقلالهم للخطر ، فإن الأمم القوية لا تعدم وسيلة لإخضاعهم لإرادتها . وفي هذا ما فيه من العدوان على وجودها . فينحصر الواجب والحالة هذه على هؤلاء الغيورين أن ينصحوا أقوامهم بإنفاق ما يستفيدونه من إيجارها في إنباض أمهم من كبواتها بفشر التعليم في جميع طبقاتها . وإرسال النباء منهم إلى البلاد الأوربية لتلقى العلم والتجهر في الصناعات المختلفة . حتى إذا آبوا إلى بلادهم نزعوا لتطبيق علومهم وصناعاتهم على العمل . وعاونوا حكومتهم على الانتفاع بخيرات بلادهم ، واستغلال ثرواتهم الطبيعية .

ولكن مؤلفنا الأستاذ خالد محمد لم يسلك هذه الطريقة ، وعمد إلى التبعي على تلك الأمم الى تسمح للأجانب باستثمار خيرات بلادها . وتقف هي مكتوفة الأيدي إزاءها . فهل كان يمكنها أن تتف هذا الموقف وهي تعرف الوسيلة لاستغلالها ؟ إن الأستاذ خالد أكثر في كتابه من مثل قوله :

« نحن نعيش في عصر ليس للحكومات فيه رسالة سوى تحقيق المنفعة الاجتماعية للشعوب ، وإزاحة كل العوائق التي تعترضها ، وتصدها عن غايتها المقدسة .

« أما عندنا فن الخير أن نعرف بأن جماعة من أصحاب المصالح الكبيرة . وكثيراً ما يكون بعض الوزراء من أعضاء هذه الجماعة ، يتربصون بكل وعى حر ، وكل محاولة عادلة ! ولعلنا لم نفس بعد ، الصراع الشاق الذي دار بين حكومة النقراشي باشا والجماعة المذكورة بشأن الضريبة التصاعدية .

« هؤلاء المواطنون ، وإنا نرجو أن يقدرُوا جلال هذا اللقب ، ويحققوا لأنفسهم معناه - يلعبون بالنار ، ويتحملون مسئولية مباشرة في كل جريمة ترتكب ضد سلام المجتمع وسلامته ، وأن الشريعة الإسلامية التي يحاولون استغلالها لحماية مصالحهم لتعتبرهم شركاء أصليين في الجريمة ، ونحن نقول :

ماذا نفيد هذه العبارات في إصلاح عوج قائم على أسباب قوية ، وهي الجهالة المنتشرة ، والوطنية الضعيفة ، والعلل الاجتماعية التي لا تصادف علاجاً شافياً ؟

الأولى من كل هذا أن يتولى الأستاذ الناس بالعطف ، وأن يدلم على طريق الخير . وأن يثبت لهم أن الطفرة محال ، وأن التدرج في سبيل العمل لا بد منه . ذلك لأنه حيال جماهير ولدت في بيئات خالية من جميع عوامل التربية الشعبية . نعم ، كغيرهم من الأمم التي تراحهم ، ولكن هؤلاء لم يبلوا بما يلي الشرقيون من الجماعات المستعمرة ذات الوسائل السحرية في تدويع الشعوب ، وتعريضها من جميع مرافق الحياة .

فالوسيلة الوحيدة لحفظ حياة هذه الشعوب هي أن تعتمد إلى تثقيف أبنائها . وتخليتهم بجميع ضروب المعارف لتكوين روح شعبية قوية . ومتى وجدت هذه الروح اندفعت للعمل على إيجاد مطالبها . فتدخل والمطامع الاستعمارية الخارجية في تظاخر مستمر بجميع وسائله المعروفة . ويكون لها الفوز في النهاية ، إن لم يكن بكل ما تريد . فبأكثره ، ثم تكرر كرة أخيرة فتحصل على الباقي منه خالصاً غير مشوب .

هذه هي الطريقة العملية لاسترداد الشعوب الضعيفة لاستقلالها . وإلحاق الشبهات الاستعمارية التي تراحها في وجودها عنها

فإذا ألقينا الآن نظرة فاحصة على الشعوب الضعيفة التي يستغل المستعمرون أراضيها ومعادنها ، وجدناها تنفق ما تحصله من إيراداتها - وقد تكون ضخمة - على شهوات قادتها ورؤسائها . مهمة في سبيل ذلك كل ما يتعلق بتثقيف أبنائها تثقيفاً عالياً يدفعهم للعمل بعلومهم . فإن لم يوجد . فإن ثقافتهم تدفعهم للعمل على إيجاده ، ولا تستطيع أن تقف في وجوههم قوة . نعم إنهم قد يصادفون عتبات جمة ، ولكنهم لا يزالون بها حتى يجتازوها ، ويحصلوا على خيرات بلادهم كاملة غير منقوصة .

الاشتراكية : أرى أن مؤلفنا خالد أفندي محمد قد أولع بالاشتراكية ، فروى عن أبي ذر صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : عجبت لمن لا يجد القوات في بيته ، كيف لا يخرج على الناس شاهراً سيفه . ونحن نستبعد أن يكون أبو ذر الغفاري هو قائل هذا البيت ، لأنه من أبعد الأقوال عن التعاليم الإسلامية ، ومن أقربها إلى صميم الجاهلية . وقد عقب خالد أفندي على هذا القول بقوله :

« إنني رغم إعجابي الشديد بأبي ذر العظيم . لا أتمنى ذلك الذي تمناه ، وهو أن يخرج الجياع شاهرين سيوفهم . وإنما أتمنى شيئاً آخر يسير التحقيق والتنفيذ لو وجدت الحكومة المجهزة بالإرادة والعزم ، وهو أن لا يوجد بيننا جوع ولا جياع ، وإنا على ذلك لقادرون إذا انتهجنا منهجاً اشتراكياً صحيحاً شاملاً . قرأنا هذا وعجبنا كيف يطالب قوما بأن يتمذهبوا في شؤونهم المالية بمذهب لم تتأد إليه معضلاتهم التعااملية ، ولم تقتضه مشكلاتهم التعاوضية ، وهل هو يرى أن تقوم الحكومة بفرض الاشتراكية على الناس كما تفرض عليهم القوانين وتحملهم على العمل بها وتجازى من يشذ عنها منهم ؟ »

إن النظم الاشتراكية لم يفكر فيها الثائمون بها إلا بعد أن اصطدمت أعمالهم المالية في عقبات كأداء ، لا تحل إلا بإحداث انتقالات أساسية في موضوع توزيع الثروة العامة ، وهذا عرض لا يحدث إلا بعد أن تكون الشؤون المالية قد تعقدت بحيث لا يحلها إلا أن تدخل في نظام جديد مبتكر ، فهي علاج لاشكالات طرأت لا ترقية لأساليب قدمت ووهنت .

ومن الغريب أن الأستاذ يقول بذلك في بلد لم يرد على بال المشتغلين فيه بالأمور المالية أنه سيأتي يوم يكون فيه التبادل من أعقد المسائل ، ويحتاج إلى حلول من أعقد ما فكر فيه المفكرون في الشؤون الاجتماعية .

وهل يرى الأستاذ أن من الحكمة أن يحول نظامنا التعاامل إلى اشتراكي دون أن نشعرنا بالأحوال الطارئة بوجوب التفكير في إصلاحه ؟ وهل يصح أن نتوسل بالإهابة بالناس إليه ، ووجوب تعويلهم عليه ، وسوادهم الأعظم لا يعرف عنه شيئاً ؟

هذا ومن العجيب أن الأستاذ المؤلف يقول :

« والآن ، وقد استبان لنا أن الخبز هو السلام ، وأن مرد كل تأخر وانحيار

وتزمر إلى الفقر وما يعانيه الشعب من خصاصة وحرمان . فقد آن لنا أن نضع أقدامنا على الطريق الذي يفضي بنا إلى الغاية النبيلة التي يتحقق ببلوغها معنى وجودنا وحياتنا ، فأين هذا الطريق . . ؟

« لا شيء سوى الاشتراكية » .

ثم يقول :

« لقد انعقد إجماع العالم المتحضر كله . على أن النظام الذي تبلغ به المنفعة الاجتماعية حدها الأقصى في الوقت الحاضر هو الاشتراكية - ويتجلى هذا الإجماع العالمي الرشيد في أخذ الدول الناهضة (جميعها) بهذا النظام ، وتطبيقه على مجتمعاتها تطبيقاً قد تختلف وسائله . ولكنه في شتى مظاهره يفضي إلى غاية واحدة ، وإن مواكب الأمم الراقية لتتخطف الأبصار وهي سائرة في طريقها إلى قمم الاشتراكية العليا دون أن تهتم نفسها . أو يهتم بعضها بعضاً بتلك التهم المعروفة التي تملك منها رصيذاً ضخماً » .

نعم من العجيب أن يقول كاتب مسئول مثل هذا القول ، وكل الناس يعلمون أن أساس الاشتراكية أبطال الملكية الفردية والوراثة ، ولا يوجد شيء من ذلك في أية أمة من الأمم الأوروبية غير التي وقعت بعد الحرب داخل السور الحديدي وهي بولونيا ونحو نصف المانيا وبلغاريا ورومانيا ويوغوسلافيا والباينا ، وهذه الأمم اضطرت إلى ذلك بما جرت إليه الحرب العامة الأخيرة من أحداث . أما الدول الكبرى الأخرى فليس بينها وبين الاشتراكية أية صلة ، وكل ما حدث فيها من أحداث فهو اعتمادها على طريقة الضمان الاجتماعي في ضرب الضرائب الكبيرة على ثروات المثرين ، وتدارك حاجات العمال والمحتاجين مما تحصله منها . فنجحت هذه الوسيلة نجاحاً عظيماً ولم تلق الدعوة إلى الاشتراكية فيها نجاحاً يذكر ، إذ لم تصل نسبة عدد نوابهم في المجالس النيابية إلى أكثر من الخمس ، وهي نسبة لا تقرهم من الحكم ولا تطعمهم فيه . وإذا كان الأمر كذلك ، وهو ظاهر مكشوف ، فلا يصح أن يبالغ مؤلفنا في نجاح الاشتراكية إلى الحد الذي وصل إليه في كتابه الذي بين أيدينا ؟

التفسير

لحضرة صاحب الفضيلة الشيخ عبد المنعم أحمم النحر

المدرس بالأزهر

قال الله تعالى : « إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ، ولا تكن للخائنين خصيماً » .
« ١٠٥ » سورة النساء



أستعين بالله الذي أنزل الكتاب وهو يتولى الصالحين ، وأستمد منه التوفيق فيما عازمت عليه من موافاة هذه المجلة بما يتيسر لي من الكشف عن بعض معاني وأغراض القرآن الكريم ، متقللاً بين آياته مختاراً منها ما يكون أوفر اتصالاً بحياتنا وأكثر مساساً بمشاكلنا ، معنياً بالمعنى والغرض العام للآية ، أكثر من عنايتي بمباحثها اللفظية ، ومكتفياً في ذلك بما يفتح لنا الطريق إلى المعنى ، تاركة التفاصيل والأوجه البلاغية والنحوية وغيرها إلى كتب التفسير التي وجهت إليها جل عنايتي ، والله يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم .

المفردات :

« بالحق » متلبساً بالحق مشتملاً عليه ، فهو نازل من عند الله حقيقة وليس سحراً ولا كهانة ولا من أساطير الأولين ، كما أنه مشتمل على الحق من حيث المبادئ والأحكام والتفصيل ، فهو كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير « متشابهاً مثاني » لم تزده الأيام ومكتشفات العقول إلا عظمة وروعة . ولعل مما

يكشف لنا عن هاتين الناحيتين في تفسيرنا « بالحق » قوله تعالى : « وبالحق أنزلناه وبالحق نزل » .

« بما أراك الله » بما عرفك الله إياه مما أوحى به إليك ووجهك إليه من نظر جار على سنن الوحي ، وليس منه الميل مع الهوى والعصية .
« ولا تكن للنخائين خصيما » مخاصما ومجادلا ومدافعا عنهم .
نتناول هذه الآية من النواحي الآتية :

(١) صلتها بما قبلها . (٢) سبب نزولها . (٣) القرآن والحكم . (٤) الرسول والعمل بالرأى ، وهل يجوز عليه أن يخطئ . (٥) الدفاع عن الجناة وموقف القرآن منه .



(١) ساق الله قبل هذه الآية ، آيات كثيرة تحض المؤمنين على قتال الكفار وترسم لهم الطريق إلى المحافظة على العقيدة بقوة الاستعداد ، وتوضح لهم ما ينتظر المؤمن المجاهد من ثواب الدنيا والآخرة ، ولقد كثرت الحديث عن هذا كثرة ربما تدفع المؤمنين إلى الاستمانة بالحق إن كان في جانب المخالفين ، وتجعلهم يفرطون في إقامة العدل إن خرج نطاقه عن المسلمين ، وجاءت حادثة كشفت عن نفوس تدعو إلى عصبية إسلامية تطمس الحق وتجرف العدل وتظن أن اتفاقها في الدين مع الحاكم - وهو الرسول - يخليها من إثمها ويحمل الرسول على التعصب لها ضد الآخرين الذين ليسوا على دينهم ، ولو كان في جانبهم الحق . فكان من المناسب إذن - بعد آيات الجهاد والقتال والضرب على يد الأعداء المخالفين - أن يذكر الله هذه الآية التي تجعل الحق والعدل هو الأساس الذي يبنى عليه كل حاكم حكمه ومملكته ، حتى يضرب صفحا عن باقي الاعتبارات ، نعم ! ليس الحق هو المعبود الذي تتجه إليه القلوب ! وهل يمكن أن تقوم الدولة إلا على قوة السواعد وقوة النفوس ؟ !

إن اختلفت في بعض أشخاصها، فإنها لم تخرج كلها عن موضوع مقارب : رجل من المسلمين سرق درعا من مسلم آخر، ولما وجد أن أمره سيفتضح، عمل على التخلص من جنائته، وحاول أن يلصقها بغيره، وهذا الغير على أكثر الروايات يهودى، وتجمع المسلمون من أسرة السارق يحاولون نفي التهمة عنه عند رسول الله، وإلصاقها بهذا اليهودى : مستغلين في ذلك العصبية الدينية، فهم مسلمون يشهدون ببراءة صاحبهم وإدانة اليهودى الذى لا يدين بطاعة الله ولا لرسوله ! بل إن بعض الروايات تقرر أنهم ذهبوا إلى أبعد من هذا، وأنهم صارحوا الرسول بذمتهم، وكشفوا له عن عصبيتهم مع شهادتهم، أى أنهم استعانوا على إخفاء الجانى بشهادتهم له، وإثارة العصبية الدينية ضد اليهودى الذى ألصقوا به التهمة، ولا ننسى أن الرسول بشر له الظاهر، وأنه يميل بطبعه للمسلمين أتباعه وأنصاره، ويفترض فيهم الصدق، ويجب أن يكونوا بعيدين عن هذه الخيانة، فربما تجمع ذلك كله أمامه، ومال به إلى إصدار الحكم على اليهودى، فأُنزل الله هذه الآية الحكيمة التى تقرر مبدأ من أسس المبادئ التى يقوم عليها صلاح الحاكم والمحكوم، وهىبة الحكم وسلامة الدولة : العدل والحق يجب ألا يحجبهما غبار الأرض، ولا يشوه من جمالها شهوة أو عصبية « كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين » .

ما أسعد المجتمع حين يأخذ بهذا المبدأ . ويرجع الحاكم إلى الكتاب ليحكم به بين الناس !! .



نعم، فالقرآن لم ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ليتعبد هو والمسلمون بتلاوته فقط، ولم ينزل ليثبت في نفوسهم الصبر والسكينة والموعظة فقط حين يتص أخبار الماضين، ولم ينزل ليأخذ المسلمين ببعض العبادات والفضائل فقط، بل نزل بهذا كله . وبتنظيم الحياة ووضعها على أسس فاضلة الخلق مجتمع سعيد، ورسم خطوطاً عامة، بل وخاصة لهذا المجتمع، وجابه طبائع النفوس بما يصلحها ويقوّمها، ووجه الرسول صلوات الله عليه والمسلمين توجيهات مفصلة، استطاعوا على ضوئها أن يقيموا دولة الإسلام العادلة فوق أنقاض امبراطوريات شاخت . وسرى فيها الفساد .

وهل كان الرسول صلى الله عليه وسلم حاكماً؟ سؤال تردد كثيراً وزاد ترداده في هذه الأيام التي اشرأبت اليها أعناق كرام المسلمين يوجهون قافلتهم إلى النور الذي يشع من كتابهم ليعيشوا تحت ضوئه وفي رحابه .

لقد رأينا بعض العلماء يتولون - لهوى في نفوسهم نعرفه - : ما كان الرسول صلى الله عليه وسلم حاكماً ، ولئن باشر الحكم ، لمدد كان ذلك من ضرورات المجتمع الذي وجد فيه . أى كما تحكم الضرورة على شيخ القبيلة أن يحكم بين أفراد قبيلته . ولقد نسي هؤلاء أو تناسوا كثيراً من آيات القرآن الصريحة التي تلزم الرسول صلى الله عليه وسلم بالحكم بما أنزله الله عليه ، وتنزه المسلمين في شدة إلى النزول عند حكمه والتسليم لأمره ، ولا أدري كيف غفلوا أو جاز لهم أن يتغافلوا عن هذه الآية التي معنا ، وعن آيات كثيرة نذكر بعضها هنا :

« وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك » ^(١) « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً » ^(٢) وهذه الآيات التي نزلت تبين حكم السارق والزاني والتاتل وقاطع الطريق ، وتعرض لشئون القتال من إعلان الحرب وتظيمها ، والاستعداد لها . وإعلان الهدنة ، ونقضها ، والتصرف في المال ، وغير ذلك من شئون الحياة التفصيلية . هل تعرض لها القرآن وشغل بها الوحي والرسول صلى الله عليه وسلم عبثاً . ولنتلوها ونتغنى بها ؟ ! أو أنه أتى بها للتنفيذ والتطبيق ، وقام الرسول صلى الله عليه وسلم فعلاً بتنفيذها وتطبيقها !! ؟

لقد باشر عليه الصلاة والسلام شئون الحكم في الحرب والسلام . في الداخل وفي الخارج حينما راسل الملوك ، وكل هذا كان بتكليف من الله سبحانه وتعالى لاختضوعاً للضرورة . كما يقول بعض الأدعياء !!

إن أية حكومة تحترم نفسها لا ترضى أن تسن قانوناً وتضع نظاماً ولا تنفذه

ولا تطلب من الناس تنفيذه ، وهل يعقل أن تصدر حكومة رشيدة أو مستبدة أوامر لا تحب تنفيذها وطاعتها ؟ وهل يمكن أن تقوم هذه الأوامر وهذه النظم إلا على يد حكام يرعونها : وهل يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ؟ إن من العبث بل والعته ، أن نقرأ هذه الأوامر القرآنية ننظم شؤون الحياة العملية في كل ناحية ثم نقول : ما للقرآن والحياة ، والتحكم في توجيهها ، وما للدين والسياسة ؟ ! فكرة خلقها ورعاها حكام سفهاء ظالمون ، كرهوا أن يعيشوا بمقاييس الإسلام الفاضلة ، وأن يأخذوا أنفسهم بها أمام رعييتهم ، وأحبوا أن يحبوا كما يريدون ، وكما تملى عليهم شهواتهم . فعملوا على أن يقتلوا في رعييتهم روح المراقبة الإسلامية الفاضلة التي تضع الحاكم والمحكوم تحت سلطانها ، فشطروا الدين شطرين : جعلوا لأنفسهم شطراً هو السياسة ، وللناس شطراً سموه الدين ، فللناس « دينهم » من عبادات وتهجدات في المحاريب ، وللحكام شطريهم الذي لا يتدخل فيه أحد غيرهم ، ولا يخضع طبعاً - حسب منطقهم - لمراقبة الإسلام ! وما للإسلام والسياسة ؟ ! ولقد استطاع أرباب الهوى والسلطان أن يركزوا هذه الفكرة في نفوس الناس على مر الأزمان ، حتى أصبح رجل الشارع المؤمن بكتاب الله إيمان العوام يقول ما للدين والسياسة ؟ ولقد قوى هذه الفكرة في البلاد الإسلامية أخيراً أن المباشرين لأمورها ، والمسئرين لأعمالها تربوا تربية غربية . وتقفوا ثقافة أوربية تقوم هناك على فصل الدين عن الدولة ، وهم بالطبع متشبعون بهذه الفكرة . كما تشبعوا بغيرها من الأفكار الغربية الاستعمارية . وساعدتهم على هذا بعدهم عن الثقافة الإسلامية الصحيحة .

إن شعوب المسلمين وحكامهم في حاجة إلى أن يفهموا أن السياسة التي رسمها القرآن للحياة هي أفضل وأسمى سياسة ، وأن نهضتهم مرهونة بإحياء روح المراقبة الإسلامية في نفوسهم التي جعلت واحداً من رعية عمر رضى الله عنه يقول له في ملا من المسلمين : لو أخطأت يا عمر لقومناك بحد سيفونا .

ولم يغضب عمر ، بل حمد الله على هذه الروح الإسلامية العالية التي جعلت في رعيته من يقول له هذا الكلام .

فهل ترانا فاعلين ؟ !!

فهم في آية

لفضيل الأستاذ الشيخ محمد محمد المدني

يذكر المفسرون في معنى قوله تعالى في سورة الفرقان : « قل ما يعبا بكم ربي لولا دعاؤكم فقد كذبتم فسوف يكون لزاما ، عدة آراء ، بعضها في معنى « ما ، وهل هي استفهامية على معنى أى اعتداد يعتد بكم لولا دعاؤكم ، أو نافية على معنى لا يعبا الله بكم لولا دعاؤكم ، وبعضها في معنى « دعاؤكم » وهل المراد به العبادة أو الالتجاء إلى الله والطلب منه ، أو الشكر له ، أو الدعوة إلى الدين الحق ، وهو الإسلام ، وبعضها في المراد بقوله « فسوف يكون لزاما » ؟ .

وأحسن ما تحمل عليه الآية في رأى أن « ما ، نافية ، و « دعاؤكم » بمعنى دعوتكم إلى دين الحق . والمعنى : أن الله لا يعبا بكم وليس لكم أى شأن معه ، ولا أى تدبير فى ملكه . ولكنه إنما يضرب لكم الأمثال ، ويبين لكم الآيات والبراهين من أجل دعائكم إلى الحق . ويبينه لكم ، لتم عليكم الحجة ، ويهلك من هلك عن بينة ، ويحيى من حى عن بينة ، وهاتم أولاء قد كذبتم فسوف يكون أثر تكذيبكم لزاماً عليكم يوم القيامة ، فلا تستطيعون منه تخلصاً ، ولا تزعمون أنكم كنتم عما أنذرتهم به غافلين .

إن من يشتغل بالقرآن الكريم ، ويتدبر معانيه الشريفة ، وأساليبه الحكيمة وأهدافه التى يرمى إليها ، يرى أنه شديد العناية ببيان الحق ، واجتذاب القلوب والعقول إليه ، وأنه يسلك إلى ذلك كل سبيل من شأنه أن يلفت الأنظار ، وينبه الغافلين ، فتارة يضرب الأمثال بما خلق الله من الكائنات ، وبما أودعها من قوى وبما سخرها للإنسان ، وتارة يذكر ما أمد الله به الناس من نعم ، وما أفاضه عليهم من فيوض الرحمة والإمداد ، وتارة يخوفهم من عذابه ، ويحذرهم من شديد حسابه وتارة يرغبهم فيما عنده من متاع دائم لا يزول ولا يحول ، إلى غير ذلك

من المعاني التي يتنقل القرآن بين معانيها ، ويفتن في تصويرها ، واجتذاب الناس إليها .

قد يفهم من ذلك بعض ذوى العقول الضعيفة من أهل الكفران والعصيان ، أن الإنسان شيء له قيمة بجانب الألوهية ، وأن الله - جل وعلا - ما حفل به إلى هذا الحد ، فأفاض في الحديث إليه ، وضرب الأمثال له . إلا لأنه مفتقر إلى عبادته ، حريص على أن يطوِّعه له لغرض يعود إليه ، فآله سبحانه وتعالى يبين هؤلاء الذين لا تخلو البشرية من نظرهم الخاطئة ، التي توسوس بها إليهم شياطينهم ، أنه إنما يحفل بهم ، ويعتد بشأنهم ، لمنفعتهم هم لا لمنفعته ، فإن حاجة الإنسان إلى هدى الله وبيانه وأخذه بيده إلى الصراط السوى في المعرفة والعمل ؛ ليست أقل من حاجته إلى الطعام الذى يقيمه ، والشراب الذى ينجيه . والهواء الذى يتنفسه ، ولو أن الله سبحانه وتعالى ترك الإنسان ونفسه ، فلم يرسل إليه الرسل ، ولم ينزل له الكتب لاضطرب في هذه الحياة أمره ، واختل ميزانه ، حتى ينتهى به هذا الاختلال وذلك الاضطراب إلى الفناء العاجل .

إن العقول تتفاوت ، والآراء تختلف ، وما يراه قوم من الناس حسناً قد يراه آخرون قبيحاً ، لاختلاف البيئات وما يحيط بالناس من أسباب ظاهرة أو خفية تؤثر في آرائهم ، وتلعب بعقولهم ، بل إن الرجل الواحد قد يرى في وقت ما رأياً ثم يرى في وقت آخر خلافاً ، فتتغير نظراته ، تبعاً لتغير الأسباب التي يعلمها أو لا يعلمها ، فإذا لم يكن للناس موازين وضوابط يلتزمون إليها ، وينزلون على أحكامها فإن الخلاف بينهم يشتد ، والآراء تتكثر ، وتكثر تبعاً لها عوامل النفرة والتقطيعة .

ولو أردنا أن نتصور حال البشر دون أن تنزل عليهم هداية الله ، فأننا نمثل ذلك بحال قوم نشأوا في بادية منقطعة عن العالم لا يتصلون بأحد ولا يتصل بهم أحد ، وليس لديهم من أسباب العلم والحضارة شيء ، أليس هؤلاء يعيشون ما عاشوا هملاً لا يفقهون شيئاً ، ولا يدركون إلا ما يلمسونه بأيديهم ، ويرونه بأعينهم ، فإذا فرضنا أن الأمد طال بهم على هذا النحو فإنهم لا ينتقلون في أطوار المعرفة والادراك الصحيح إلا انتقالاً بطيئاً لا يكاد يدرك ، فالبشرية - لولا الهداية

الربانية - ملها كمثل هؤلاء القوم . تمر عليها الدهور والأزمان دون أن تتقدم في مدارج الرقي والكمال ، ولو تقدمت لكان تقدمها بطيئاً بطيئاً ، ولعلنا نلمح هذا المعنى في قوله تعالى : هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً .

فهذه الآيات الكريمة تشير إلى الأطوار التي مر بها الإنسان ، فالطور الأول هو الدهر الطويل الذي عاشت فيه الإنسانية عيشة الحيوان في الغاب ، لا تعلم من أمرها شيئاً في حاضرها أو ماضيها أو مستقبلها ، وذلك قبل انفتاح العقل البشري بسبب الهداية الإلهية عن الحقائق واستضاءته بنور المعارف ، والطور الأخير هو طور المعرفة والعلم الذي يصل ببعض الناس إلى الإيمان والشكر ، وبعضهم إلى الجحود والكفر ، ذلك بأنه لا يتصور شكر الشاكر ولا كفر الكافر إلا إذا صدر أحدهما عن عالم ذي تفكير ، فالحالة التي وصل فيها الإنسان إلى أن يكون منه شاكر ومنه كافر ، هي أحسن حالاته من الناحية العقلية التفكيرية ، ومن قبل كان الإنسان ساذجاً لا يعقل أن يشكر أو يكفر ، ويدل على هذا المعنى التعبير في هذه الآية بقوله : إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً ، حيث كان التفصيل بالشكران والكفران بياناً لإجمال يجمعهما في المعنى وهو هداية السبيل ، التي يراد بها دخول الفكر الإنساني - بالهداية الربانية - في مرحلة النظر والتفكير .

وقد ذكر الله بين هذين الطورين الأول والأخير أمر الخلق والتكليف وإعداد الإنسان بالسمع والبصر ليكون عالماً مفكراً ، وذلك هو قوله عز وجل : إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً .

ولهذا الأسلوب دلالة ، فإن الله سبحانه وتعالى يشير به إلى أن نعمة الخالق على الإنسان بالخلق والإيجاد ، ونعمة الهادي بالتعليم والإرشاد ، كلاهما نعمة كبرى بها يكون قوام الإنسان في حياته ، وصلاحيته لعامة هذا الكون ، والخلافة عن الله فيه .

ولعلنا نجد هذا المعنى أيضاً في قوله تعالى «اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم ، .

فإن هذه الآيات - وهي أول ما نزل من القرآن الكريم - تجمع بين الحديث عن الخلق ، والحديث عن العلم ، وفي ذلك إشارة واضحة إلى أن نعمة الله على الإنسان بتعليمه وإخراجه من الظلمات إلى النور ، لا تقل خطراً عن نعمته عليه بخلقه وإخراجه من ظلمات العدم إلى نور الوجود ، بل الآيات الكريمة تشعر بأن نعمة العلم أعظم ، حيث جاء ذكره بعد قوله : «اقرأ وربك الأكرم ، والله أعلم .»



كان عبد الله بن معاوية بن عبد الملك بن جعفر بن مالك جليلاً ، وخطيباً مفوهاً ، وشاعراً مجيداً ، كتب إلى بعض إخوانه :

أما بعد ؛ فقد عاقني الشك في أمرك ، عن عزيمة الرأي فيك ؛ وذلك أنك ابتدأتني بلطف عن غير خبرة ، ثم أعقبني جفاء من غير جريرة ، فأطمعني أولئك في أخائك ، وأياسني أخرك عن وفائك . فلا أنا في غير الرجاء بمجمع لك أطراحاً ولا أنا في عدم انتظاره منك على ثقة ، فسبحان من لو شاء لاجتمعنا على ائتلاف أو افترقنا على اختلاف .

السنة

بركة المسلم حياً وميتاً

فضيلة الأستاذ الشيخ طه محمد الساكت

المدرس بالأزهر

عن عبد الله بن عمر، رضى الله عنهما، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها، وهي مثل المسلم، حدثوني ما هي؟ فوقع الناس في شجر البادية، ووقع في نفسى أنها النخلة — قال عبد الله فاستحييت — فتمالوا يا رسول الله أخبرنا بها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هي النخلة. قال عبد الله: لحدثت أبى بما وقع في نفسى، فقال لأن تكون قلتها أحب إلى من أن يكون لى كذا وكذا. رواه الشيخان.

فى مجلس من مجالس النبى صلى الله عليه وسلم، وقد حفل بصفوة من أصحابه، أراد أن يحدثهم عن المسلم الحق الذى يصلح أن يكون عضواً حياً فى الجامعة الإسلامية، ولبنة قوية فى بنائها، ومن أحق من النبى صلى الله عليه وسلم بهذا الحديث، وهو أول المسلمين بشهادة الله سبحانه؟ وقل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين، لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين.

والذى أثار الحديث عن المسلم مناسبة لطيفة. اتخذ منها إمام المربين صلوات الله وسلامه عليه سبيلاً إلى امتحان أصحابه فى أسلوب مشوق لما يلقى عليهم من العلم والحكمة، والتشويق فن من فنون التربية، غنى به المربون وعلماء النفس كثيراً. وأوسعوه بحثاً ودرساً لما له من عظيم الأثر فى تنبيه الفكر وجمع القوى.

أهدى إليه صلى الله عليه وسلم جمّار فأكل منه، ثم سأل أصحابه أن يخبروه عن الشجرة التى لا يتساقط ورقها على غير المعهود فى الشجر، والتى مثلها كمثل المسلم فى النفع والخير والبركة... فأخذ الحاضرون يذكرون من شجر البوادي ذاهلين

عن الشجرة التي أكلوا من جمارها ، وكان في الجمار تنبيه على الإجابة ، بيد أنهم لم يعرفوا النخلة باسم الشجرة من قبل هذا المجلس ، لمكن عبد الله رضى الله عنه تنبيه وألقى الله في روعه أنها النخلة ، وللجمار الأثر الأول في هذا التنبيه . ولقد هم عبد الله أن يجيب . ولكنه نظر فإذا هو أصغر القوم ، وكان عاشر عشرة هو أحدثهم ، ورأى الشيخين : أبا بكر وعمر لا يتكلمان ، فسكت عن الإجابة حياء وأدبا . فلما غجز القوم وأعيوا ، سألوا النبي صلى الله عليه وسلم فأجابهم بأنها النخلة . ولما انصرف المجلس حدث عبد الله أباه بما وقع في نفسه . فقال له لو قلتها يا بني لكان ذلك أحب إلى من حمر النعم ، كما ثبت عند ابن حبان في صحيحه ، والأحاديث يفسر بعضها بعضاً ، ومن ذلك حديث الصحيحين : لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم ، والإبل الحمراء أعز أموال العرب وأنفسها .



ما أجزل تشبيه المسلم بالنخلة ، أو النخلة بالمسلم . كما فعل صلى الله عليه وسلم . إنها خفيفة المؤنة ، قليلة الكلفة : تنفع ولا تضر . وتحسن ولا تسيء ، وتعطي كثيراً ولا تأخذ - إن أخذت - إلا قليلاً ، وكذلك المسلم الحق ، يتعفف ولا يلحف ويتلطف ولا يتكلف . مأمول نفعه وخيره ، مأمون شره وضره ؛ يحسن إلى الناس ويعفو عن إساءتهم ، ويعطيهم مخلصاً ، ولا يريد منهم جزاء ولا شكوراً . وفي النخلة صلابة واستقامة ، وقوة ومثانة ، لا تحركها الرياح ولا تنال منها العواصف ، وكذلك المسلم الحق : قوى في دينه ، ثابت في يقينه ، في الزلازل وقور ، وفي المكاره صبور ، وفي الرخاء شكور ، مهتد وهاد إلى الصراط المستقيم .



النخيل وارفة الظلال ، طيبة الثمار ، ممدودة الخير ، موصولة النفع منذ أن تغرس ، إلى أن تجف وتيبس ، بل بعد أن تقطع قطعاً وترسل في مصالح الناس ومرافقهم . وإن ترى شيئاً من أصولها وفروعها وثمارها مهملاً أبداً . ويدرك بركة النخيل وخبرها في حياتها وبعد مماتها ، من يعلم أن كثيراً من الناس كانوا - ولا يزالون - يقيمون في بيوت تعتمد على جذوع النخل وجريده ، ويعيشون

على التمر عمراً ، كما تعيش إبلهم على النوى دهرآ . وفي السيرة النبوية عن عائشة رضي الله عنها : إن كنا آل محمد لنفكث شهرين ما نوقد ناراً إن هما إلا الأسودان : التمر والماء . وكذلك المسلم الحق . كله خير وبركة . حياً وميتاً ، لنفسه وعشيرته ، وأمه ووطنه ، والعالم أجمع :

أما في حياته : فيما يعلمهم ويرشدهم ، ويؤدى حقوقهم ، ويسعى جاهداً في مصالحهم ويعينهم على البر والتقوى .

وأما بعد مماته فيما يترك فيهم من علم نافع ، أو هدى صالح ، أو أثر مبارك أو سنة حسنة له أجرها وأجر من عمل بها بعده إلى يوم القيامة لا ينقص من أجورهم شيء . وكل هذه الشعب الخيرة المتنوعة تدخل فيما رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له .

هذا هو المسلم الحق ، الذى تتألف منه ومن أمثاله أمة رشيدة قوية ، متماسكة متآزرة ، كزرع أخرج شطاؤه فأزهره فاستغلظ فاستوى على سوقه ، أمة صالحة لوراثة الأرض وعمارتها ، جديرة بما وعد الله عباده : من النصر فى قوله تعالى : « وكان حتماً علينا نصر المؤمنين » والعز فى قوله سبحانه « والله العزة ورسوله وللمؤمنين » والتمكين فى الأرض من بعد الاستخلاف فيها كما قال جل سلطانه : « وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليسكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً » . فأين المسلم أو المسلمون اليوم من شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء ، تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها !!

إنهم حفالة كحفالة الشعير أو التمر : أو غناء كغناء السيل ! لا تستطيع أن تحصيهم عدداً ، ولكن قلنا ترى مع الأسى والأسف أحداً !

إنه لن يعود للمسلمين مجدهم الأول إلا إذا تخلقوا بأخلاق الرعيل الأول « أشداء على الكفار رحماء بينهم » تراهم فى توادهم وتعاطفهم وتراحيمهم كمثل الجسد الواحد ، إذا اشتكى عضو منه تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى ، أو تراهم كالبيضان يشد بعضه بعضاً .

وَأَجِبْ مُصْرَنَحْوَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

أفضيلة الأستاذ الشيخ برر المتولي عبد الباسط

المدرس بكلية الشريعة

قال تعالى : « ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا » وروى البخارى ومسلم عن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لا حسد إلا فى اثنتين : رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وأطراف النهار . ورجل آتاه الله مالا فهو ينفقه آناء الليل وأطراف النهار » وروى البخارى بسنده إلى عثمان بن عفان رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « خيركم من تعلم القرآن وعلمه » .

منذ أسلمت مصر ، وملا الإيمان قلوب بنينا أقبلت على كتاب الله تعالى تستظهر آياته ، وتستنبط معانيه وتطبق تعاليمه على ما يجد لها من أحداث ، فانتشر فى ربوعها ، حواضرها وقراها ، مكاتب جعلت تحفيظ القرآن الكريم غايتها ، وفى كل مدينة من مدنها مدارس ، جعلت من علوم القرآن مواد دراستها ، فكان التعليم فى مصر يدور كله حول كتاب الله وفهم أسرارها ، وتذوق مافيه من بلاغة وأدب ، وفته ما بين دفتيه من علوم كونية ، والتخلق بما فيه من أخلاق كريمة .

ولقد كانت مصر تتسابق مع البلدان الإسلامية الأخرى فى هذا المضمار الشريف ؛ ونالت قصب السبق فى أكثر الأحيان ، وأخرجت إلى العالم الإسلامى علماء رفعوا شأنها بمناختهم عن دين الله . ولقد ساهم فى هذا الميدان جميع طبقاتها : فأمراؤها ساهموا بجاههم وبما أفاء الله عليهم من نعم المال ، وأغنياؤها رصدوا العتار فى سبيل حفظ كتاب الله ، وقمراؤها أقبلوا على كتاب الله يحفظونه ويتدارسونه ، وكان لهم به جاه أى جاه ومكانة أى مكانة . وهانحن لا نزال نرى آثار هذه المكاتب التى أنشأها الأمراء والأثرياء .

ولما ركبت ربح العلم فى البلاد الإسلامية ، كانت مصر وفية لكتاب الله حريصة على أن يكون من أبنائها من يحسن تلاوته ويستظهره عن ظهر قلب ،

وأن يتلقاه الخلف عن السلف ، وأن يورثه الآباء للأبناء . حرص على ذلك حكماء ، وتنافس في هذا المضمار جميع طبقاتها كما كانت الحال أيام نهضة العلوم الإسلامية ، وقوة الدولة المحمدية ، لم تقصر مصر في هذا الواجب فترة من تاريخها الإسلامي ، بل سارت في هذا الطريق قدماً لا يثنى عنها معوق مهما كان شديداً .

ولما هبت مصر تأخذ بأسباب الحضارة الأوربية ، غنى البيت العلوي الكريم بكتاب الله تعالى ، فحرص حكماء من هذه الدوحة المباركة على أن يكون تعليم القرآن الكريم في الصدارة من برامج الثقافة ، فكثرت الكتائب التي تحفظ الأطفال كتاب الله ، وزاد عدد الحفاظ وحظوا بامتيازات شتى جعلت كثيراً من الطبقات تقبل على أن تعلم أبناءها كتاب الله ؛ وتتفهم بثقافته ؛ حتى حق لكل مصرى أن يعتز بأن بلاده هي أحفظ بلاد الله لكتاب الله ؛ وأن مصر قد اصطفاه الله فأورثها هذا التراث العظيم ، وإذا كانت تفتخر الآن بأزهرها وجامعاتها ، فهي كذلك تفتخر بحملة كتاب الله من أبنائها ، ولها أن تباهى بأن تيار العلوم الدينية يسير جنباً إلى جنب مع تيار العلوم الدنيوية ، وما ذلك إلا لحرصها على تعاليم القرآن وتعلمه .

ولا ينسى هذا الجيل أن الملك الراحل فؤاد العظيم ، كان أعظم أثر تركه - وما أكثر ما أثره - أن أعاد طبع المصحف الشريف بشكل جميل وضبط دقيق .

ولا ينسى هذا الجيل أن الملك الراحل فؤاد العظيم ، رعى جمعيات المحافظة على القرآن الكريم التي انتشرت في عهده في المدن والقرى وأظلمها بجناح رعايته وعطفه حتى أثمرت أطيب الثمار .

ولا ينسى هذا الجيل أن شبله فاروقاً الأول - حفظه الله - استن سنة أبيه ونهج نهجه وسار على منواله في رعاية كتاب الله والعمل على نشر حفظه ونشر تعاليمه .

واليوم ، وقد تقرر مجانية التعليم في المرحلتين الابتدائية والثانوية ، وتيسرت سبل العلم في الجامعات المدنية ، رأينا بعض الغيورين على الكتاب المجيد يتوجسون خيفة من انصراف الأمة عن تعليم القرآن الكريم وتعلمه بعد أن زالت أكبر ميزة كان يتمتع بها حملة كتاب الله أو الراغبين في حفظه ؛ ولا سيما أن المستقبل

أمام المتعلمين تعليماً مدنياً أكثر ابتسماً منه أمام الذين يسلكون طريق التعليم الديني الذي أساسه حفظ القرآن الكريم ، والتاريخ قديمه وحديثه شاهد على أن العلم يعيش ويتزعرع في ظلال رعاية أولى الأمر ، لا فرق في ذلك بين العلوم الدينية والدينية .

يخشى الغيورون أن ينصرف الناس عن حفظ القرآن الكريم تحت عوامل الاغراء الكثيرة التي يتمتع بها طلاب التعليم المدني بعد أن كانت إلى جانب التعليم الديني أكثر وأعظم .

يخشى الغيورون أن تصبح مصر ولا يحسن فيها أحد تلاوة كتاب الله إلا من المصاحف كما وقع - مع الأسف الممض - لأكثر البلاد الإسلامية ، والقرآن ما بقي سليماً من التحريف والتبديل إلا لأنه محفوظ في الصدور لا في السطور وفي القلوب لا في الألواح والصحف ، وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث يقول : إن الله لا يمتبض العلم انتزاعاً ينتزعه من الناس ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤساء جهالاً فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا .

فاذا قال قائل لهؤلاء الغيورين لا تجزعوا ولا تيأسوا فإن الله وعد - ووعدته الحق - أن يحفظ هذا الكتاب حتى يأتي أمر الله ، إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ، إذا قال لهم قائل ذلك أجابوه نعم ، ولكن نخشى أن ينتقل هذا الفضل والسبق من مصر إلى غيرها من بلاد الإسلام ؛ إنا نريد أن ينتشر حفظ القرآن الكريم في جميع الأقطار الإسلامية على أن يبقى لمصر فضل السبق والحرص على هذا التراث الجليل الذي اصطفاها الله لحفظه وورثها إياه . وأقر لها بهذا الفضل جميع المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها ، وبايعوها بهذه الزعامة راضين مطمئنين .

يتألم الغيورون من أن يروا العناية الفائقة بعلم وفنون ليست الأمة في حاجة إليها لصالح دينها أو دنياها ، كالموسيقى والرقص ، والرسم للأجسام الحية العارية إلى آخر ما هنالك مما يسمونه بالفنون الجميلة ، ويقولون آسفين : لو رصد في ميزانية وزارة المعارف لحفظ كتاب الله ما رصد لهذه الفنون التي لا تحتاج إليها الأمة

لرفع شأنها أو تثقيف عقولها لآمننا على هذا التراث الضخم من الضياع ولاطمأنت
قلوبنا على زعامة مصر في هذا المضمار .

ونحن نقول لهؤلاء الغيورين شكر الله لكم غيرتكم وأثابكم على حسن نيتكم
ولكن لا تنسوا أن على رأس مصر ملكا يحرص على دينه حرصه على أعز شيء
عنده ، وأنه لا يرى أقدس من كتاب الله وأولى برعايته السامية من المحافظة عليه .
والأمل في الله كبير أن يكون عهده كعهد أبيه ، فينتشر حفظ القرآن الكريم
في ربوع البلاد مدنها وقراها .

ونقول لهؤلاء الغيورين إن على رأس حكومة جلالته رجلا رأس ماله دينه ،
وملاك أمره عقيدته ،

وعلى رأس الأزهر رجلا لا يحابي أحداً في دين الله ، ولا يتساهل في حق الله .
وعلى رأس وزارة المعارف رجلا عرف القرآن ومكانته من الثقافة ومنزله
من التربية العلمية والخلقية ، وإذا وكلت أمانة القرآن في أعناق هؤلاء ، فلا تخشوا
بأساً ولا تظنوا سوءاً ، بل ادعوا الله مخلصين أن يرزقهم التوفيق إلى خير الوجوه .
وأنجع السبل لتحقيق هذا الأمل المنشود .

من محاسن الحكم

قال شاعر حكيم :

ما استقامت قناة رأيت إلا بعد أن عوج المشيب قناتي

وقال الأشعث بن قيس يوماً لقومه :

« إنما أنا رجل منكم . ليس لي فضل عليكم ، لكنني أبسط لكم وجهي ،
وأبذل لكم مالي ، وأقضي حقوقكم ، وأحوط حريمكم ، فمن فعل مثل فعلي ،
فهو مثلي ، ومن زاد على فهو خير مني » .